في ربوع الأزبكية

دراسة أدبية، تاريخية، اجتماعية

تأليف

محمد سيد كيلاني

ماجستير من كلية آداب جامعة القاهرة

الكتاب: في ربوع الأزبكية.. دراسة أدبية، تاريخية، اجتماعية

الكاتب: محمد سيد كيلاني

الطبعة: ٢٠١٩

صدرت الطبعة الأولى عام١٩٥٨

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

كيلاني ، سيد، محمد

في ربوع الأزبكية.. دراسة أدبية، تاريخية، اجتماعية / محمد سيد كيلاني

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٣١ ص، ١٨ سم.

الترقيم الدولى: ٤ – ٩٤٢ – ٤٤٦ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٥٥٨٧ / ٢٠١٩

في ربوع الأزبكية

دراسة أدبية، تاريخية، اجتماعية

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

إهداء

إلى الأستاذ يوسف السباعي

يا يوسف بن أبي السباع هدية — يا كاتباً كالكوكب الوهاج
صعب الشكيمة لا تلين لحاقد — أو حاسد، أو ناقم، أو هاجى
أهديك دنيا الأزبكية صغتها — من عالم التاريخ كالديباج
ضمنتها القول الصريح وما أرى — في الحق من لوم ولا إحراج
لا يهربن من الحقيقة عاقل — فإذا هربت أخي فلست بناجي

* * *

ومرابع للفن كانت مصدراً — للنور في وسط الظلام الساجي
وطرقت باب اللهو غير مقصر — مسترسلاً في الطرق والإيلاج
فإذا رجوت من الإله هداية — ورعاية فأنا الضعيف الراجي

* * *

لعن الحكيم وضل عنه صوابه — واندااس بين مجاهل وفجاج

في سكرة الموت التي تنتاشه … عز الدواء ولات حين علاج

ويل له من كاتب متخاذل … يغتال من سبقوه في الإنتاج

في بيت عالمة العوامل شأنه … ينساب بين تراقص وفناج

ولخزيه حيناً وفرط قصوره … ينزاح في عال من الأبراج

* * *

أدبت توفيق الحكيم بهمة … شماء قد أربت على الكرباج

فتركته متضرجاً بدموعه … ودمائه في الصبح والإدلاج

يا يوسف بن أبي السباع تحية … يا صادقاً في القول والمنهاج

مقدمة

إن تاريخ وجه البركة جدير بالعناية، وخليق بالبحث والدرس؛ ففي تلك الجهة سكن كثير من عظماء مصر، أمثال الشيخ عبد الله الشبراوي، والشيخ مُحَمَّد المهدي، وكان كل منهما شيخاً للأزهر في عصره. وسكن الأمير كتخدا رضوان الجلفي في قصر ضخم فخم، كان منتدى للشعراء، وكعبة للأدباء، يفدون عليه من كل صوب فيغمرهم بكرمه وعطفه. وفي وجه البركة سكن البكريون الذين فتحوا قصورهم للوافدين عليهم من رجال الأدب والعلم، فلهجت بمدحهم الركبان، وسار ذكرهم في كل مكان، وفي وجه البركة يقيم خلفاء مرقص الرسول. وسكن هذا الحي كثير من عظماء القبط، أمثال إبراهيم الجوهري رئيس كتاب مصر في زمنه، وأخيه جرجس. والمعلم يعقوب القبطي الذي انضم إلى الفرنسيين ومحارب في صفوفهم ضد العثمانيين، وقد عرف باسم (الجنرال يعقوب)، وفي وجه البركة سكنت عائلات عريقة، أمثال عائلة الشرايبي، وعميد هذه الأسرة، هو الذي بنى جامع الشرايبي الكائن بشارع الرويعي، والذي يطلق عليه حالياً اسم (جامع البكري) وسكن فيها شيخ تجار مصر في القرن العاشر الهجري، السيد أحمد الرويعي، وبنى مسجده المعروف، وضريحه الذي دفن فيه.

وكانت ناحية وجه البركة بمقاهيها ومغانيها، ومراقصها وملاهيها، وحاناتها وغوازيها، وحدائقها وبساتينها، وأشجارها وأطيارها، مسرحاً لأدباء

مصر في العصر العثماني وبعد العصر العثماني. كان الأدباء يقضون أوقاتهم على الحشيش الأخضر تحت ظلال الأشجار، وعلى حافات الجداول المنسابة بالماء الفضي، والتي تبدو كالسيوف فوق الأبسطة الخضراء. أو يمضون الليالي في (الصالونات) الأدبية بقصور الأمراء والأعيان المطلة على البركة. أو في المقاهي والمغاني، أو في الحمامات الكثيرة المنتشرة بناحية الرويعي وقنطرة الدكة إن كان الوقت شتاء. قد ترك هؤلاء الأدباء إنتاجاً انعكست فيه أصداء هذه البيئة بما فيها من جمال الطبيعة وجمال الإنسان، وما فيها من فسق وخلاعة وفجور. وهذا الأدب يستحق الدراسة لأنه من وحي الفن للفن. وإنك لتحس وأنت تتأمل في هذا الأدب بأن أصحابه قد اندمجوا في هذه البيئة اندماجاً تاماً، وارتموا بين أحضان الطبيعة بعد أن أكسرتهم نشوتها، وأثملتهم خمرتها، وفي وجه البركة نما الأدب الشعبي وترعرع على أيدي القصاص وطبقة (الأدباتية)، وعلى أيدي المغنين والممثلين. ووجدت الفنون الشعبية كالرقص وخيال الظل وألعاب المهارة، مجالاً خصباً في هذه البيئة. وازدهرت الفنون القبطية والآداب المسيحية.

أما بعد، فإني لا أدعي أني وفيت الموضوع حقه، أو أحطت به من جميع نواحيه. وكل ما يمكن أن أقوله أني بدأت محاولة في دراسة وجه البركة دراسة أدبية اجتماعية تاريخية متوخياً الإيجاز.

محمد سيد كيلاني

القاهرة في أول أغسطس سنة ١٩٥٨

وجه البركة

في العصر العثماني (١٥١٧ـ١٨٠٥م)

الأرض الممتدة من محطة قنطرة الليمون إلى مسجد الكخيا، ومن مسجد الكخيا إلى أول شارع القلعة مارة بشارع عبد العزيز. ومن أول شارع القلعة تسير إلى أول شارع الأزهر فأول شارع الجيش (فاروق) ثم تتجه إلى محطة قنطرة الليمون، هذه المساحة يطلق عليها اسم (وش البركة)، وهي موضوع دراستنا. وجزء من هذه المساحة يمتد من محطة قنطرة الليمون إلى شارع قنطرة الدكة كان يسمى عند دخول العرب مصر قرية (أم دنين)، وقد أطلق العرب عليها اسم (المقس) أو (المقسم) لأنهم قسموا فيها الغنائم.

كانت هذه الأرض بعد الفتح الإسلامي، قد أهمل أمرها تماماً، وذلك لأن حركة العمران قد انتقلت إلى الفسطاط التي أصبحت عاصمة البلاد، ومقراً للوالي ولمن معه من الموظفين والجند، وظل أمر هذه البقعة في طي الإهمال حتى جاء الخليفة الفاطمي الظاهر سنة ٤٤٠هـ (حوالي سنة ١٠٢٠م) فشيد في ناحية قنطرة الليمون قصراً فخماً يدعى (قصر اللؤلؤة) وله منظرة جميلة يجلس فيها الخليفة حينما يريد، تسمى (منظرة اللؤلؤة). وقد أصدر الظافر أمره بحفر بركة متسعة تمتد إلى قرب منظرة

اللؤلؤة، فاشتغل العمال ليل نهار حتى تم حفرها في مدة وجيزة، وأدخل إليها الماء عن طريق الخليج الناصري، وقد أطلق عليها اسم (بركة بطن البقرة)، وبعد زوال الدولة الفاطمية، أخذ أمر البركة يتلاشى يوماً بعد يوم فتراكمته فيها الأتربة حتى انسدت، وكاد أثرها يختفي من الوجود تماماً.

وفي[1] سنة ٨٨١هـ (حوالي ١٤٦٠م) قيض الله للبركة أميراً هماما، وقائداً شجاعاً، ومحارباً مغواراً، هو الأمير أزبك الخازندار. كان أزبك قد أمضى شطراً كبيراً من حياته في الكفاح والنضال، والطعان والقتال، وجمع ثروة طائلة؛ فأراد أن يركن إلى الراحة، ويخلد إلى الهدوء والسكينة، ويتمتع باللهو والسرور؛ ففكر أول ما فكر في أن يبنى له قصراً ضخماً فخماً يجمع كل وسائل الترف والنعيم التي عرفت في عصره، وقد وقع اختياره على بركة بطن البقرة التي قدر لها أن تحمل اسمه فيما بعد.

وكانت هذه البركة كما ذكرنا قد أصبحت أثراً بعد عين. فأعاد أزبك حفرها وعمقها وبنى حولها رصيفاً من الحجر ليحميها من تساقط التراب والأحجار فيها، وليتخذ الناس هذا الرصيف (الكورنيش) للنزهة، واستحضر عدداً عظيماً من العمال، وكلفهم بنقل الأتربة التي كانت تشغل مساحات واسعة حول البركة، فاشتغلوا بهمة لا تعرف الكلل حتى أزالوا تلال التراب والقاذورات.

---

(١) ابن إياس، والخطط التوفيقية.

وبعد أن مهدوا الأرض ونظفوها، غرسوا فيها الأشجار من مختلف الأنواع، والورود المتباينة الألوان، وشيد الأمير لنفسه قصراً تجرى من تحته الأنهار، كان آية في الجمال والروعة، وتحفة نادرة المثال في نقشه وزخرفته. بلطت أرضه بالرخام الملون، وشيدت فيه النافورات البديعة. وطليت جدرانه بالأدهان الزاهية الألوان، ونقشت بماء الذهب والفضة، وفرش بأفخر أنواع الرياش، وعلق بسقفه عدد من القناديل.

وبنى أزبك بجوار قصره هذا، مساكن لأتباعه وخدمه وعبيده، كما شيد مسجداً وصفه المؤرخون بأنه بلغ النهاية في الجمال والفخامة. وهو المسجد الذي يطلق عليه الآن (مسجد أولاد عنان) [٢] وشيد عدداً من الحمامات والمخابز والمخازن والقياسر والترابيع والإسطبلات، وأقبل الأعيان والأمراء من كل صوب على البناء في هذه البقعة الجميلة، حتى نشأت في مدة وجيزة مدينة قائمة بذاتها.

وكانت بركة الأزبكية تستمد مياهها – كما ذكرنا– من النيل عن طريق الخليج الناصري، لذلك عرف الجزء المواجه لباب الحديد باسم (وجه البركة) ولكنه أطلق على الناحية كلها. وكان بالقرب من الرويعي أرض متسعة فضاء يحرق فيها الجير. والمصريون يطلقون على الأرض الفضاء اسم (وسعة) أو (ساحة) أو (رحبة) ولذلك أطلقوا على وجه البركة اسم (وسعة الجير) ثم حذفوا كلمة الجير وقالوا (الوسعة)، فأصبحت (الأزبكية) و(وجه البركة) و(الوسعة) أسماء ثلاثة لمعنى واحد ولجهة واحدة.

---

(٢) بجهة باب الحديد أو (ميدان رمسيس).

وبعد أن فرغ الأمير أزبك من هذه المهمة، شرع يفكر في خلق المناسبات لإقامة معالم الأفراح والليالي الملاح حتى يأخذ بحظ من اللذات، فاخترع احتفالاً سماه (احتفال فتح البركة)، فحينما يرتفع النيل، يفتح السد المقام عند مدخل البركة على الخليج الناصري فتتدفق المياه إليها، وجعل هذه المناسبة احتفالاً سنوياً عظيماً وعيداً كبيراً يشبه عيد وفاء النيل؛ فكان يدعو إليه الأمراء والأعيان، وينصب لهم الصواوين الفاخرة، ويقدم لهم موائد الطعام وعليها كل ما لذ وطاب. وبعد الأكل يجلس أزبك مع ضيوفه يستمعون إلى غناء المغنيات، ويشاهدون الرقص المصحوب بالطبل والزمر، وهكذا يقضون ليلة أو أكثر في بهجة وسرور، وانشراح وحبور.

وكان العامة يشاركون الأمير في هذه المناسبة، فيحملون طعامهم وشرابهم، ويتخذون أماكنهم بين الأشجار وعلى شواطئ البركة. وكانت هذه الاجتماعات فرصة لارتكاب المعاصي على اختلاف أنواعها من سكر وعربدة ولعب ميسر، واختلاط جنسي طبيعي وغير طبيعي.

إلا أن هذه المناسبات – أي مناسبات العربدة – كانت قليلة على شواطئ بركة الأزبكية، في حين أن بركة الرطلي كانت المحل الرسمي للبغاء، والبؤرة المختارة للدعارة، وكعبة الحشاشين والفسقة، إليها يشدون رحالهم من كل ناحية من نواحي العاصمة. ولم يمنع هذا بعض فقهاء المسلمين من السكنى على شواطئها كشيخ الإسلام ابن حجر العسقلاني، وقاضي القضاة ابن الجيعان، والدشطوطي، وجلال الدين البكري وغيرهم ممن لا يحصيهم العد.

وقد حدث أن بعض نساء السلطان الغوري ذهبن إلى بركة الرطلي وعربدن وارتكبن المعاصي. فأصدر السلطان أمره بإزالة المباني القائمة حول بركة الرطلي وحرم السكنى في تلك الجهة. فآل أمرها إلى الخراب. وقد رثاها أحد شعراء ذلك العصر بقصيدة طويلة نذكر منها:

على(٣) بركة الرطلي نوحوا وعددوا   لما حل فيها من نكال ومن خسر

وكان بها السكير في غاية الهنا   يدير كؤوس الراح في ليلة البدر

وكان بها الحشاش يمرح بهجة   فمذ قطعوا لذاته صار في فكر

وكان بها للراكبين مراكب   مسترة فيها وأخرى بلا ستر

وكم داخل فيها مغن ومنشد   بنغمته كم من خفيف ومن شعر

وكم آله للمطربين عهدتها   وجنك وعواد يغرد كالقمري

وقد درست تلك المعاهد كلها   وناحت بها الغربان والبوم في الوكر

وشق شقيق الدوح فيها ثيابه   وألقى غصين الدوح ما فيه من زهر

وقد لبيس ال؟؟؟؟ سود ثيابه   وأبدا خرير الماء لطم من النهر

وسالت دموع السحب من أعين السما   وصار ضياء الصبح كالليل إذ يسري

وقد كسفت شمس الضحى في سمائها   وأظلم نور البدر في الخسف للفجر

---

(٣) ابن إياس: ج٥، ص١٠.

فيـا مقلـتي جـودي بـدمعي تحسـراً ويا مهجـتي صـبراً وناهيـك بالصـبر

رعـى الله أيامـاً تقضـت بطيبهـا ونحـن بمصـرفي أمـان وفي بشـر

***

أخذ الشاعر كما رأينا يبكى وينوح على المغاني والمراقص التي دمرت، وأماكن الحشاشين والخمارات والمطاعم التي اندثرت معالمها وأضحت كأن لم تكن بالأمس. وتحسر على الليالي الجميلة وأوقات السرور واللذة التي قضاها في تلك الجهات بين الكاس والطاس. وصور الطبيعة وقد شاركته في أجزائه، وبكت لبكائه، وناحت لنواحه. وقد أظلم الجو، وانكسفت الشمس، وانخسف القمر، وجزعت الطيور، ولطمت الجداول، وألقت الأشجار أغصانها وتخلت عن إثمارها.

***

ومما هو جدير بالذكر أن القاهرة في العصور الماضية، امتازت بكثرة ما فيها من البرك مثل بركة الرطلي، وبركة الفيل، وبركة الأزبكية، وبركة الحج، وبركة الحبش. كما كان يمر بها الخليج المصري والخليج الناصري؛ لذلك كثرت فيها القناطر مثل قنطرة الدكة، وقنطر السباع، وقنطرة الليمون، وقنطرة الحسينية وغيرا مما لا يتسع المقام لذكره.

***

انتقلت إلى بركة الأزبكية الجماعات التي طردت من بركة الرطلي، وفي سنة ١٥١٧م سقطت مصر في أيدي العثمانيين. وفي الأعوام الأولى للاحتلال، ضيق قاضى العسكر على النساء تضييقاً شديداً، ومنعهن من الخروج بتاتاً ولأي سبب كان، ولم يستثن من ذلك سوى العجائز وأوقع عقوبات صارمة على كل من تجرأت وخالفت أمره، كما منعهن من ركوب الحمير، وحرم على صناع الأحذية عمل أحذية لهن، ولكن أيام هذا القاضي[٤] لم تطل، وما أن غادر القاهرة حتى أقامت نساء الأزبكية معالم الأفراح، وخرجن إلى الطريق في مظاهرة، يرقصن ويغنين بقولهن:

قوموا بنا نقحب ونسكر — قد خرج عنا قاضي العسكر

سارت نساء الأزبكية متبرجات متهتكات في الشوارع والطرقات، يرقصن رقصات خليعة فيها إغراء وتحريض على الفسق والفجور، فمن هذه الرقصات، رقصة النحلة، وهي أن الراقصات يدعين وجود نحلة بين ملابسهن. ويصحن بأصوات ناعمة فيها إغراء وإثارة قائلات: النحلة أيوه، النحلة أيوه. ويشرعن في البحث بين ملابسهن عن هذه النحلة التي لا وجود لها إلا مخيلتهن. ويتجردن من ملابسهن شيئاً فشيئاً حتى لا تبقى على أجسامهن سوى غلالة رقيقة لا تستر ما تحتها، وقد أقبل الشبان في تلك الليلة من كل ناحية، وجاءوا من كل صوب وكانت فوضى خلقية لا مثيل لها، وليالي حمراء تحرر فيها أكثر الناس من القيود وتركوا أنفسهم على هواها تتمتع بالخدود والقدود، وأي لوم على الشبان ما دامت النساء

---

(٤) ابن إياس ج٥/ ص٤٦٠.

خرجن عاريات ليسكرن ويقحبن، ويشبعن شهواتهن البهيمية التي حبسها ذلك القاضي العجوز مدة من الزمن؟

ومن ذلك التاريخ (١٥٣٠م) عمرت دور الفسق والفجور بوجه البركة بالفتيات الشركسيات والإفرنجيات اللائي جلبن خصيصاً لمزاولة الدعارة. واشتهر بيت (كويك) (٥) في عالم الاتجار بالأعراض. وظل حاملاً لواء هذه التجارة طوال العصر العثماني.

وعرفنا من أفراد هذا البيت (شعيراً) و(سعودا) و(أم خزام) فقد وردت هذه الأسماء في شعر الهجاء الذي تبادله شعراء وجه البركة، وفي المقامات المجونية التي دبجها أدباء تلك البيئة. مثال ذلك قول الشاعر مُحَمَّد شبانة المتوفى سنة ١٧٩٥ من زجل في هجاء قاسم بن عطاء الله المصري، وهو:

هـــي قاسـم قـم بـلا بـطء	في الحـــال وعـــود
وأءتي بغـــــــلام	دا اســـهل عليـــك
واذهـــب لشــعيرا	وجئنـــا بســعود
مـــع أم خـــزام	تنقـــاد إليـــك
هـــا أنـــت إلى	وكالـــة النـــور تقـــود

(٥) المدامة الأرجوانية ورقة رقم ١٣.

تـــــــــدمخ وتنـــــــــام   يا بيـــــــت كويـــــــك

وقال حموده السيديدي في الهجاء:

شيدت للفسق بيتا ساء منتظماً   بيـت الكويـك بـه التعـريض مختـبر

وسكن وجه البركة شيخ تجار مصر في القرن السادس عشر وهو السيد أحمد الرويعي، وبنى مسجداً ما زال قائماً إلى اليوم. كما بنى لنفسه ضريحاً يتبرك الناس بزيارته اعتقاداً منهم أن صاحبه كان من الأولياء والأقطاب.

وكانت عائلة الشرايبي تسكن قصراً ضخماً فخماً في وجه البركة. وفي سنة ١٧٢٦ بنى قاسم بن مُحَمَّد داده الشرايبي جامع الشرايبي الذي يعرف الآن بجامع البكري بشارع الرويعي، وقد سمي جامع البكري، لأن المجذوب على البكري قد دفن فيه سنة ١٧٩٢.

وهذا الرجل ليس من العائلة البكرية المعروفة، ولكنه في نسب إلى الطريقة البكرية، وقد ذكره الجبرتي فقال: (كان رجلاً من البله يمشي بالأسواق عرياناً مكشوف الرأس والسوءتين، غائباً).

ثم استطرد الجبرتي فروى أنه كان لهذا الرجل أخ فقير لا يكاد يجد قوت يومه. فلما رأى ميل الناس إلى أخيه، واعتقادهم فيه، حجزه في منزله، ومنعه من الخروج، وألبسه ثياباً، وأشاع أنه أصبح قطباً يطلع على

الغيب ويخبر بما في اللوح المحفوظ، ويبرئ المرضى ويفرج الكروب. فأقبل الناس عليه متبركين حاملين له الهدايا والنذور، وخصوصاً نساء الأمراء والكبراء، فجمع أخوه ثروة طائلة في مدة وجيزة، وبذلك تخلص من الفقر الذي عاش فيه طوال حياته.

ولما مات علي البكري، دفنه أخوه حيث يوجد ضريحه الآن. وكان يحضر المقرئين والمنشدين والمداحين ورجال الطرق الصوفية، فيقيمون عند الضريح الحضرات وينشدون الشعر في مدح القطب (علي البكري) ويرقصون ويصرخون، ويمرغون وجوههم على شباكه، ويغرفون بأيديهم من الهواء المحيط به ويمسحون به وجوههم.

***

وكان الشيخ عبد الله الشبراوي[٦] المتوفى سنة **١٧٥٥**م، والذي تولى مشيخة الأزهر في عصره، يسكن بالقرب من جامع الرويعي. فقد ابتنى قصراً متسعاً في هذه الناحية، حوى ألوان الترف والبذخ التي عرفها الأمراء والأغنياء في تلك الأيام، ولا عجب في ذلك، فقد ورث الشيخ عن والده ثروة طائلة.

وكان في ريعان شبابه يخرج مع أنداده وأترابه، متجولاً بين ملاهي الأزبكية ومراقصها. أو مضطجعاً على الحشائش بين الخضرة والماء والوجه

---

(٦) الجبرتي ١/٢٠٩ وانظر ديوان الشبراوي.

الحسن. وفي الليالي المقمرة يجدون جواً ساحراً فاتناً. فيلهون ويمرحون، ويلعبون ويضحكون حيث لا رقيب ولا حسيب. وقد انعكس أثر هذا في شعر الشيخ عبد الله كما انعكس في شعر غيره من شعراء ذلك العصر الذين لا نتجاوز الحقيقة إذا أطلقنا عليهم اسم (شعراء وجه البركة) أو أدباء وجه البركة، حتى تكون التسمية أوسع فتشمل الشعراء والكتاب الذين نثروا المقامات في وصف تلك الجهات. انظر إلى قول الشبراوي:

ألا إن ديني فاعلموه هو الهوى ... وموتي شهيداً في الصبابة مذهبي

ويبدو من هذا البيت أن الشيخ الشبراوي اتخذ الحب والعشق ديناً له، واعتنق مذهباً غير المذاهب الأربعة المعروفة. هذا المذهب الذي اختاره لنفسه هو (موته شهيداً في سبيل العشق والغرام)، وقال:

وأصبو إلى الوجه الجميل إذا بدا ... وأسخط من ذكر السلو وأغضب

وعشق القدود الهيف عندي عقيدة ... وطبع عليه قد ربيت ومذهب

قضى الله أن الحب أعلى فضيلة ... وأن الهوى أحلى نعيماً وأعذب

ويذكر الشبراوي في سعره أنه عالم بفنون الغرام، وأن علمه قائم على التجربة والاختبار. ويدعو الناس إلى أن يتلقوا عنه هذه الفنون دون سواء. فهو الخبير بها، العالم بأسرارها. ويقول إن الحب في المرتبة العليا من مراتب الفضيلة. وهو أحلى النعم وأعذبها وأجملها مذاقاً. وقد وقف قلبه على أرباب الجمال، وأهل الحسن والفتنة. والهيام بالقامة الممشوقة والخصر

النحيل، دينه الذي يعتقده، وسجيته التي نشأ عليها. فهو والحالة هذه يعبد الجمال ويهيم بالحسن حيث وجده. فلم يقصر الشيخ الشبراوي نشاطه على كتب الفقه والحديث والتفسير. بل جعل معظم نشاطه وقفاً على ربات الجمال، يسعى وراءهن في غير كلل ولا ملل، حتى إذا وقعت عينه على إحداهن، كانت نظرة فابتسامة فموعد فلقاء. وقد وصف اجتماعاً له مع إحدى عشيقاته، فقال:

عانقته فاسودت المقل التي — هي بلوتي واحمرت الوجنات

وضممت قامته فختلت كأنها — قد عجلت لذاتها الجنات

يا قلب إن زعم العواذل أنه — في الحسن يوجد مثله قل هاتوا

ما زلت أجني من لذيذ خطابه — تحفاً لها من طيبه نفحات

وبلغت قصدي حيث جاء لمنزلي — هذا الغزال ورقت الأوقات

ودنا يودعني فلا وأبيك ما — بقيت لدى التوديع في حياة

فهو يذكر العناق والضم والتقبيل، وبالطبع لم يقف الأمر عند هذا، ولكن تعداه إلى شيء آخر.

***

ولم يكتف الشيخ الشبراوي بوجه البركة وما فيه من الجمال الإنساني والطبيعي، بل غلبت عليه نزعة البوهيمية؛ فكان ينتقل من جهة إلى جهة، ومن حديقة إلى أخرى. وكان الإفرنج في ذلك العصر يسكنون في حي خاص بهم على شاطئ الخليج، يمتد من السكة الجديدة إلى نهاية الخرنفش، وقد اعتاد الشيخ الشبراوي أن يتريض مع بعض أصدقائه بالقرب من هذا الحي ليمتع نفسه بجمال الفتيات الإفرنجيات. وهذا هو السر في أنه يذكر الخليج في شعره، ويتغنى بالليالي الحلوة التي أمضاها على شاطئه، ينزه عينه -كما قال - بين القدود والخدود، قال:

يا خرير الخليج تفديك نفسي ... فلكم نلت في هواك منائي

يا نديمي جدد بذكراه وجدي ... واحيي ذاك الغرام بالإغراء

أنا أهوى الجمال والأعين النجل ... تذيب القلوب بالإثماء

أي عيش يطيب في مصر إلا ... بمليح متوج بالبهاء

نزه الطرف بين قد وخد ... وجبين وطلعة حسناء

وتمتع بكل أهيف ألمى ... ذي دلال ومقلة نجلاء

آه لو كان لي عن الغيد صبر ... كان قلبي في راحة من عناء

وقال من قصيدة أخرى:

وكـم لي إلى مجـرى الخلـيج التفاتـة		يسيل بها دمعي على ذلك المجرى

وكـم قلـت للقلـب الولـوع بـذكرها		تصبر، فقال القلب لم أستطع صبرا

وكان هذا الشعر الغزلي الذي أكثر الشبراوي من نظمه، منتشراً بين مختلف طبقات الشعب وذلك بفضل المغنين الذين أذاعوه في الموالد والأفراح، ومعنى المقاهي الذين أقبلوا على إنشاده لما وجدوا به من رقة وعذوبة وملاءمة لروح عصرهم.

وللشيخ الشبراوي قصيدة زجلية طويلة مطبوعة، لا نستطيع أن نقف عندها لأنها تصور الشذوذ الجنسي. وتمتاز هذه القصيدة بأنها في أسلوب قصصي؛ فالناظم يسرد لنا قصة وقعت له، وعلى كل حال، فشعر الشبراوي تنعكس فيه صورة البيئة الأزبكية، هذه البيئة الخليعة الماجنة.

ومما هو جدير بالذكر أن الأزهريين في العصر العثماني لم يستنكروا ما كانوا يرونه من أنواع الموبقات، وانغماس الناس في الشهوات، وعكوفهم على الخلاعة والمجون، بل إنهم شاركوا العامة في ذلك، ولم يجدوا عيباً في المجاهرة بما يرتكبون من ضروب الفساد، فهم يحضرون الموالد التي كانت مجمعاً للعشاق والفساق دون أن ينكروا شيئاً من هذه الأمور. وقد روي أن مُحَمَّد بن إبراهيم العوفي المالكي المتوفى سنة ١٧٧٤ كان شاعراً ماجناً

خليعاً. ومع ذلك فقد اشتغل بالتدريس في الأزهر، وكانت حلقة درسه تزيد على الثلاثمائة، وهذا عدد كبير بالنسبة لمجموع الطلبة إذ ذاك.

وعرض الجبرتي لأخلاق رجل الأزهر الشريف في أيامه، فقال في ص٦٩ من الجزء الرابع ما نصه: (وارتكابهم – يعنى رجل الأزهر – الأمور المخلة بالمروءة، المسقطة للعدالة كالاجتماع في سماع الملاهي والأغاني والقيان والآلات المطربة، وإعطاء الجوائز والنقوط بمناداة الخلبوص وقوله بمسمع من النساء والرجال وعوام الناس وخواصهم برفع الصوت الذي يسمعه القاصي والداني، وهو يخاطب رئيسة المغاني: يا ستي، حضرة شيخ الإسلام والمسلمين، مفيد الطالبين، الشيخ العلامة فلان، منه كذا وكذا من الذهب، قدر مسماه كثير وجرمه قليل، نتيجة التفاخر الكاذب، والازدراء بمقام العلم بين العوام وأوباش الناس الذين اقتدوا بهم في فعل المحرمات؛ الواجب عليهم النهي عنها. كل ذلك من غير احتشام ولا مبالاة مع التضاحك والقهقهة المسموعة من البعد في كل مجمع، ومواظبتهم على الهزليات والمضحكات)[٧]

ونرى الشبراوي يجاهر بأنه ترك التقوى والورع، وعكف على الخلاعة والتهتك، قال:

أبــدلت فيــه تنســكي بتهتكــي   وأخذت من قول العد بضده

---

(٧) الجبرتي ٣/١٩.

وهذا أزهري آخر، هو إسماعيل الظهوري المتوفى سنة ١٧٩٥ يقول من قصيدة:

هــل العــيش إلا في اكتســاب مــآثم	**أو العمـــر إلا في افتنـــاء محـــارم(٨)**
أو الغـــنم إلا في ارتكـــاب كبـــيرة	**أو السكر إلا في ارتشـاف مباسـم(٩)**
ســـقى الله أيام البطالـــة أدمعـــاً	**من العين تجرى كالغيوث السواجم(١٠)**
زمــان بــه كــان الســرور بخنصــري	**ختامــاً وكــان الظــبي فيــه منــادمي**
إذ العــيش طلــق والــرياض بواســم	**عن النور لكن من شفاه الكمائم (١١)**
وســيرى إلى تلــك الدســاكر ســحرة	**وغنمـي بهـا مـن طيبـات مواسـم(١٢)**
وجــرى ذيــول التيــه في عرصــاتها	**جهـاراً وضـمي للقـدود النـواعم(١٣)**
خليلــي لــو وافيــتم حــق صــحبتي	**لكنـتم رفـاقي بـين تلـك المعـالم(١٤)**

---

(٨) المآثم: المعاصي.

(٩) ارتشاف: مص. مباسم: الثغور، جمع ثغر وهو الفم.

(١٠) أيام البطالة: أوقات التفرغ للهو. الغيوث: جمع غيث وهو المطر. والسواجم: المتساقط من المطر.

(١١) الكمائم: جمع كم وهو الوعاء الذي يظهر فيه الطلع وغطاء النور.

(١٢) الدساكر: أماكن اللهو وحانات الخمر.

(١٣) عرصاتها: ساحاتها.

(١٤) المعالم: الأماكن.

فحيـا الحيـا دار الأحبـة مـا شـدا — على الدوح مطراب الأصائل هائم[١٥]

لقـد طـال مـا نازعـت فيهـا زجاجـة — تضـمنت الأفـراح مـن عهـد آدم

معتقـة صـاغ المـزاج لرأسـها — أكاليـل مـن در كـدر دراهـم

إذا ما جلاها مخطف الخصر في الدجا — وغـنى عليهـا مثـل شـدو الحمـائم(١٦)

أبحـت طريفـي في هـواه وتالـدي — وصـيرته مـولى علـي وحـاكمي(١٧)

شعراء وجه البركة الذين تأثروا في شعرهم بهذه البيئة الخليعة إلى حد كبير كما مر بنا من شعره.

ومن الفضائح التي سجلها المؤرخون[١٨] في ذلك العصر، ما روي عن رجل اسمه (أحمد صادومة) كان بالقاهرة أيام مُحَمَّد بك أبي الذهب، وكان الأزهري المشهور الشيخ حسن الكفراوي يذيع عنه أنه من الأولياء وأرباب الأحوال والمكاشفات. بل كان يقول إنه قطب الزمان، وأخذ يروج هذه المزاعم عند الأمراء.

---

(١٥) الحيا: المطر. شدا: غنى. الأصائل: جمع أصيل وهو وقت الغروب. هائم: سائر على غير هدى.

(١٦) مخطف الخصر: نحيل الخصر. الدجى: الظلام. شدو: غناء.

(١٧) الطريف: المستحدث. التالد: القديم. يقول: إنه يضحى بكل ما يملكه من حديث الثروة وقديمها في سبيل حبيبه. والمولى: السيد.

(١٨) الجبرتي ١٩/٢.

وحدث أن أحد هؤلاء الأمراء واسمه يوسف بك، اختلى بمحظيته، فرأى على سوأتها كتابة. فسألها عمن كتبها، فأجابت بأنه الشيخ صادومة، فأمر بقتله في الحال وإلقاء جثته في النيل، ثم أمر بتفتيش منزله، فوجدوا به تماثيل، ومنها تمثال من قطيفة على هيئة ذكر. ولما انتشرت هذه الفضيحة، خاف الشيخ الكفراوي على نفسه، وتوارى عن الأنظار مدة من الزمن.

***

وانتشر المتصوفة في حدائق وجه البركة، يرتكبون المعاصي جهاراً نهاراً، ويقولون إن هذا مقدر عليهم ولا مهرب لهم منه. وزعموا أنهم اتصلوا بالله اتصالاً من شأنه أن يسقط عنهم التكاليف الشرعية من صيام وصلاة وحج وزكاة وانطلقوا على هواهم يفسقون ويعربدون. ولم يستطع أحد أن يتعرض لهم بسوء، إذ كانوا قوة يخشى بأسها. ومن العجيب أننا وجدنا رجلاً كالشعراني المتوفى حوالي سنة ١٥٦٩ يقول إنه لا بد للمعاصي من فاعل. ويدعو إلى السكوت عن مفاسد المتصوفة، وعدم التعرض لهم بالنقد، لأن نقدهم والتعرض لهم باللسان حرام، وجالب لغضب الله، هذا ما قاله الشعراني، مع أن هؤلاء المتصوفة كان يتفشى بينهم الإلحاد. وإنما اتخذوا التصوف ستاراً لابتزاز الأموال حتى يعيشوا عالة على المجتمع. انظر إلى ما رواه مؤلف كتاب (هز القحوف) (كان يعيش في القرن السابع عشر) وهو:

(وسمعت[١٩] بعض الملحدين من الدراويش المحلقين لحاهم يقول كلاماً يخالف الكتاب والسنة، وهو أن البعث والنشور، والجنة والنار، لا حقيقة لها وأن اشخص جنته وناره وحسابه في نفسه. وأن الدنيا لا تفنى ولا تزول: وإنما هي شمس تطلع، وقمر يغيب، وينشد قول أبي العلاء المعري):

أتـى عيسـى فأبطـل شـرع موسـى ... وجـاء محمد بصـلاة خمـس

وقـالوا لا نـبي بعـد هـذا ... فضـل القـوم بـين غـد وأمـس

ومهمـا عشـت في دنيـاك هـذي ... فمـا تخليـك مـن قمـر وشمـس

فـإن قلـت المحـال رفعـت صـوتي ... وإن قلت الصحيح دخلت رمسي[٢٠]

(ثم يقول إن الشخص إذا خرجت روحه ومات، دخلت في جسد من الأجساد في آدمي أو حيوان حتى يدور عليها الدور، فترجع إلى صاحبها الأول فيظهر بصورته التي كان عليها أولاً. وهكذا سائر العوالم).

وقد حدث أن عبد الله جاك مينو[٢١] القائد الفرنسي المعروف، خرج ذات يوم متجولاً في شوارع الأزبكية. فرأى أحد الدراويش يسير متجرداً من ملابسه، وهذا منظر مخل بالآداب؛ فوجه سؤالاً إلى شيوخ الأزهر عن حكم الإسلام فيمن يسيرون في الأسواق، ويكشفون عوراتهم، ويصيحون

---

(١٩) الرمس. القبر.

(٢٠) ص ٧٦.

(٢١) الجبرتي ٣/١٤١.

ويصرخون ويدعون الولاية، وتعتقدهم العامة، ولا يصلون صلاة المسلمين ولا يصومون، وهل هذا جائز في الدين الإسلامي أم محرم؟ فأجابوه بأنه حرام ومخالف للدين والشرع والسنة؛ فأمر مينو بمنع هؤلاء الناس من السير على ما اعتادوا، وإلقاء القبض على كل من يخالف هذا الأمر، ووضعه في المارستان إن كان مجنوناً، أو إخراجه من القاهرة إن كان عاقلاً.

وكان بعض هؤلاء المتصوفة مخنثين، يخضبون أيديهم وأرجلهم بالحناء، ويلبسون الثياب الزاهية الألوان ويكحلون عيونهم بالكحل الأسود، ويمضغون اللبان، ويتعرضون للناس ويمسكونهم من مواضع حساسة من أجسامهم، ويختلون بهم في أماكن مظلمة في وجه البركة في الأزقة والخرائب أو الحدائق. ولم تكن الشوارع تضاء في تلك الأيام، فكان من السهل على الناس أن يعملوا ما تشتهيه نفوسهم دون خوف.

***

وفي العصر العثماني (القرن الخامس عشر) عرف المصريون شراب القهوة، وقد قيل إن أول من اهتدى إليه هو أبو بكر بن عبد الله المعروف بالعيدروس، وكان أصل اتخاذه له أنه مر في إحدى سياحاته بشجر البن، فأكل من ثمره حين رآه متروكاً لا ينتفع به أحد مع كثرته. فوجد فيه تجفيفاً للدماغ، واجتلاباً للسهر، وتنشيطاً للعبادة. فاتخذه قوتاً وطعاماً وشراباً، وأرشد أتباعه إليه. ثم نشر ذلك في اليمن والحجاز ومصر. وقد جاء أبو بكر إلى القاهرة حوالي سنة ١٤٨٦.

وكما أن الصوفية هم الذين أدخلوا مادة الحشيش المخدرة إلى مصر في القرن الثالث عشر وأشاعوا استعمالها بين المصريين، كذلك أدخل الصوفية شراب القهوة في مصر في القرن الخامس عشر.

وكما اختلف المصريون في الحشيش، وهل هو حرام أم حلال، اختلفوا كذلك في أمر القهوة؛ فذهب قوم إلى تحريمها لما فيها من الضرر، وخالفهم آخرون ومنهم المتصوفة، وقالوا بإباحتها لأنها ليست مسكرة ولا مغيبة، وإما فيما تنشيط النفس لأشغالها وما يطلب منها، وخصوصاً في سهر العبادة أو قراءة القرآن أو دراسة علم أو تحصيل معاش، فإن قصد بها الإعانة على شيء من ذلك، كانت قربة عند الله.

أما الذين حرموها فقد استدلوا إلى أنها تحاط عند شربها بطقوس كالتي تحاط بها الخمر كتصفيق شاربها، وإنشاد أشعار الغزل والحب ووصف الخمر، إذ أن ذلك يفسد النفس، وبخاصة إذا صحبها مخدر مثل الحشيش والأفيون وخبز الغراب والسطل، ولأن المقاهي تجمع الصغار والكبار والأراذل الذين يروجون الأكاذيب ويغتابون الناس، ويلعبون الشطرنج وألعاب الميسر. وأنكروا على رجال الدين ذهابهم إلى المقاهي، ورأوا أن ذلك يخل بالمروءة ويسقط الشهادة، ويدنس العرض.

وقد ألف المتعصبون لها الرسائل في بيان فضائلها ومنافعها، وذكروا أن شجرة البن في الجنة غرسها سبعون ألف ملك وتسمى شجرة السلوان، لأنها خرجت مع آدم ليتسلى بها عما فاته من النعيم المقيم. وقالوا إن

مداومة أكل البن يقوى النظر والفهم، ويدفع الجدري والحصباء والسحر، وفي أكل سبع حبات منه دعوة مستجابة، لأن فيها (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ).

ولم يقف الشعراء بمعزل عن هذه المعركة، بل ساهموا فيها بنصيب وافر، نظموا القصائد والمقطوعات في القهوة ومزاياها، ومن أمثلة ذلك قول أحدهم:

يا عائباً لشراب قهوتنا التي	تشفي شفاء النفس من أمراضها
أو ما تراها وهي في فنجانها	تحكى سواد العين وسط بياضها

وقال آخر:

للبن سر قد حكته شيوخنا	يا نعم منه كلهم أقطاب
فيهم نقول وقد تكامل وصفه	في أكله نفع وفيه ثواب

وقال غيره:

وقهوة بن تورث اللب قوة	ومن عجب والقشر أصل وعنبر
ومهما أرادت عصبة منع شربها	ترى أمرها يعلو ويقوى ويظهر
وأعجب منها قول من ضل رأيه	بلى عرف الحق الصراح وينكر
بكاثر فيها الحق والله شاهد	فيزعم فيها أنها الحس تسكر

تحقـق فيهـا النفـع لاسـيما لمـن عن الجد في فعل العبادة يفتر(٢٢)

وقد بقيت مشكلة تحريم القهوة وتحليلها بين علماء مصر مدة من الزمن، ولكن لم يكد ينتهي القرن السادس عشر حتى انعقد الإجماع على تحليلها، وفتحت المقاهي في وجه البركة بنوع خاص، وذلك لأن الأحياء السكنية لم يكن أحد من أهلها يقبل أن ينشئ في بيته مقهى كما هو الحال الآن وحتى لو صادف وأنشئت مقاه في تلك الأحياء، فإن الناس كانوا يجلسون فيها في منتهى الأدب والحياء.

أما مقاهي وجه البركة فكانت مراقص ومغان، وأندية للقوادين وتجار الأعراض، وبؤرة للحشاشين وبائعي المخدرات، ومجمعاً لطلاب اللهو الحرام، وكان أصحاب المقاهي يتنافسون في اجتذاب الجماهير، فيتخذون وسائل مختلفة لإغراء الناس بالجلوس في مقاهيهم؛ فمنهم من يستأجر الفتيات الجميلات من بنات الهوى، يرقصن رقصات البطن التي لا تزال معروفة. ولما لم تكن هناك رقابة على تلك المقاهي، فلذلك ذهب أصحابها في الفحش إلى حد بعيد، فكان السهر فيها غير محدد بوقت معين. والراقصات يزاولن عملهن عاريات. فلم تكن إحداهن تلبس إلا ثوباً رقيقاً لا يستر جسمها بل يزيده فتنة وجمالاً.

وكانت طائفة الغجر والجعيدية منتشرة في وجه البركة انتشاراً عظيماً، ولأن أجورهم كانت في متناول الطبقات الفقيرة، فلذلك كان الإقبال

---

(٢٢) يفتر: يضعف.

عليهم شديداً، ومقاهيهم ومواخيرهم مزدحمة بالناس وبخاصة أصحاب الحرف والعمال والفلاحين الذين يفدون من ضواحي العاصمة للتفريج عن أنفسهم وإراحتها من عناء الأعمال.

ورأينا بعض المقاهي تستأجر القصاص ليسلوا الناس بالحكايات اللطيفة، والنوادر الطريفة، والملح المطربة، والنكات المنعشة. وكان القاص يجلس فوق دكة مربعة، ويأتي بحركات تناسب المقام. ويغير صوته ويبدله تبعاً لمواقف القصة المختلفة، فهناك موقف يحتاج إلى صوت مرتفع غليظ، وموقف يحتاج إلى صوت منخفض حزين، وغيره يحتاج إلى صوت ينم عن التوسل والتضرع، وموقف يحتاج إلى صوت مضحك، وهكذا.

وفي أثناء القصة ينشد القاص بعض الأزجال والموشحات أو المواويل أو الشعر العامي الذي لا يتقيد فيه ناظمه بوزن ولا بصحة نحو واستقامة لغة وإنما يرتجله كيف ما كان. وليس فيه من سمات الشعر إلا وحدة القافية. ونجد كثيراً من هذا الشعر في سيرة الظاهر بيبرس، وهز القحوف في شرح قصيد أبي شادوف وغيرهما، فلا عجب أن راجت سوق الأدب الشعبي بوجه البركة رواجاً عظيماً لم يسبق له مثيل. وكثر إنتاج هذا الأدب على اختلاف أنواعه كثرة هائلة. ومن القصص التي ظهرت في هذا العصر (سيرة الظاهر بيبرس) في سبعة آلاف صفحة. وتمتاز هذه القصة بوجود كلمات تركية فيها مثل باشا، وبك، وطوبجي، وخانجي، وغيرها. كما تمتاز بوجود كلمات أوروبية مثل كرستيان، ورين، ودوكاتا.

وقد صورت القصة الحياة الاجتماعية المصرية في القرى والمدن، فنرى المؤلف يروى لنا حيل الملتزمين وألاعيبهم التي يسلكونها ليخصوا أنفسهم بجانب كبير من أموال الحكومة، وتسخيرهم للفلاحين في الأعمال الشاقة مقابل أجر ضئيل جداً لا يتجاوز رغيفين وبصلتين في اليوم.

كما صورت لنا فساد الحياة في مدينة القاهرة وما كان بها من أنواع اللصوص وأمكنة الدعارة ومحال الخمر والرقص والغناء، وحوادث الخطف التي كانت تجري جهاراً نهاراً وبخاصة خطف العمائم. وطبقات السواس الذين قسموا القاهرة إلى مناطق، تستأثر كل جماعة بمنطقة لا تتجاوزها إلى غيرها.

وحدثتنا عن فتوات الحسينية وما كان لهم من نفوذ وسلطان، وما اتصفوا به من عادات وأخلاق. ولا شك أن القارئ سيقف طويلاً أمام شخصية عثمان ابن الحبلة الذي كان يتخذ مغارات جبل المقطم مقراً له ومقاماً. ويعيش مع عصابته على الخطف والنهب. وكان عثمان كما نرى من القصة إذا مر في شارع، هرب الناس من وجهه واختفوا في مساكنهم حتى تخلو الطرق تماماً من المارة. فهذا الرجل كان يبعث الرعب والفزع في القلوب ولم ينج من شره بعض كبار الحكام ولكن بيبرس استطاع أن يحطم غروره ويذله، ثم طلب منه أن يتوب عن السرقة والنهب، ولا يلحق الأذى بالناس، فتاب ولازم بيبرس، وأصبح ساعده الأيمن قبل توليته ملك مصر.

وفي القصة مجال واسع للجاسوسية، وبراعة في التخفي والتنكر؛ فمن أبطال الجاسوسية جمال الدين شيحة وأولاده. وكانوا يعملون بنشاط منقطع النظير في هذا الميدان، فتراهم يتنكرون في هيئة رهبان، أو دراويش، أو تجار من بلاد الروم أو من بلاد العجم. وأحياناً كثيرة في هيئة فتيات جميلات شركسيات أو جواري حبشيات، ويطلون أجسامهم بألوان تناسب الحالة التي يتنكرون فيها. ولهم مهارة فائقة في تسلق جدران القصور والأسوار والحصون والقلاع، والتسلل إلى داخلها ليلاً واستخدام البنج ليفقد العدو وعيه، وحينئذ يحملونه ويهربون به.

وكان شيحة حافظاً للإنجيل، إذا رتل بصوته الشجي أثر في سامعيه إلى حد كبير. ويجيد التكلم بلغة الفرنجة، كما كان خبيراً ببلادهم وعاداتهم وتقاليدهم، لذلك كان إذا تنكر في هيئة بطريق مسيحي لم يستطع أحد أن يكشف حقيقة أمره.

وفي القصة نرى أحد رجال الدين المسيحي، واسمه البطريق جوان الذي جعله المؤلف لا يقل مهارة في التنكر والتخفي عن شيحة، وكان جوان حافظاً للقرآن ولكثير من الأحاديث النبوية، دارساً لأمهات الكتب اللغوية والنحوية وكتب الفقه والتفسير. فاستطاع أن يدخل القاهرة متنكراً في زي عالم مسلم اسمه (الشيخ صلاح الدين العراقي) وأن يظفر بوظيفة قاضي الديوان الملكي، وكانت من الوظائف التي يشغلها عادة أعظم علماء المسلمين.

وشرع جوان أو الشيخ صلاح الدين يدس الدسائس تلو الدسائس للكيد للمصريين حكومة وشعباً. ويراسل الفرنجة سراً ويحرضهم على احتلال مصر، واتخذ له مسكناً بحارة الروم.

وعندما تولى بيبرس ملك مصر، اجتهد في القضاء على أرباب الفساد وأهل الدعارة وعصابات اللصوص، وقطاع الطرق وقد سرد علينا المؤلف قصصاً ونوادر عن هذه الطوائف، وكيف تمكن بيبرس من القضاء عليها وتطهير البلاد من شرها وفسادها.

أما الذين انتفع بهم بيبرس في ميدان القتال فأشهرهم الفارس المغوار (إبراهيم الحوراني) صاحب قلعة حوران بالشام. وكان مقيماً في مصر مع أتباعه الحوارنة في مساكن خاصة بهم. وقد ظل إبراهيم طوال حياته مخلصاً لبيبرس، ولم يسلم إبراهيم من دسائس جوان الذي حاول كثيراً أن يوقع بينه وبين سيده. وكاد يفلح في ذلك لولا حكمة الوزير شاهين، وذكاء جمال الدين شيحة.

والبطل الثاني، سعد بن دبل البيساني، وهو ابن خالة إبراهيم، وعملهما متشابه في الديوان الملكي، فهما يحرسان القصر ليلاً، ويلازمان الملك في حله وترحاله ملازمة الظل.

والبطل الثالث، أيدمر البهلوان الذي اشترك في جميع الحروب والمعارك التي خاض غمارها الجيش المصري، وشاهد من الأهوال ما يعجز القلم عن وصفه. وبعد وفاة سيده، وقع في ضائقة شديدة، واضطر إلى أن

يعيش – كما تذكر القصة – في قلعة الكبش متنكراً في زى سقاء، وذلك هرباً من بطش قلاوون الذي نكل برجال بيبرس في غير رحمة ولا شفقة.

وانتفع بيبرس إلى حد كبير بأبي بكر البطرني. فقد كان هذا الرجل قائداً عاماً للقوات البحرية المصرية في ذلك الوقت، فأبلى بلاء حسناً في المعارك البحرية التي دارت بين المصريين والفرنجة. ولعب دوراً مهماً في هزيمة أسطول (استالود) ملك جزائر الجلف وغيره من ملوك أوربا. وكان بارعاً في المعارك البحرية، وله سفينة اسمها (السحاب) اتخذها دائماً مقراً لقيادته.

***

والبيئة المصرية ظاهرة في هذه القصة الطويلة ظهوراً لإخفاء معه، فلم يترك المؤلف ناحية من نواحي الحياة المصرية دون أن يوفيها حقها من البحث والتمحيص والتحليل، ورسم لنا صورة واضحة لحياة الشعب المصري. فهو شعب ناضج، يسخر من الحاكم المستبد، ويعترض طريق الملوك والولاة الظالمين ويشتمهم شتماً عنيفاً، ويسبهم سباً قبيحاً، كما فعل مع عز الدين أيبك التركماني حتى اضطر هذا الملك كما ذكر المؤلف إلى أن يعمل سرداباً تحت الأرض يسلكه إذا غادر قصره إلى الديوان الملكي، وذلك فراراً من الشعب الذي كان يقف له بالمرصاد، ويوجه إليه الشتائم والسباب.

وقد سرد المؤلف كثيراً من أسماء أحياء القاهرة وحواريها وشوارعها. فذكر حي بولاق، وباب الشعرية، والحسينية، ومصر العتيقة، وباب الخلق وباب اللوق، ودرب الجماميز، والبساتين، وقلعة الكبش، وقناطر السباع، وشبرا، وباب الحديد، والرميلة وغيرها، ويكثر في القصة استخدام البنج بوضعه في الطعام أو الشراب، أو إلقائه في النار، وأحياناً نرى السم بدله، ويشيع فيها الاستعانة بضروب السحر وتسخير الجان. وبها ما شئت من ضروب التهكم وأنواع السخرية والتحليل النفسي الدقيق، والمآزق التي تسمى (عقدة القصة) وفيها من رقة الخيال ما يبعث على الدهشة، وبها صراع بين الخير والشر.

***

وانتشرت قصص العشاق وأخبارهم ونوادرهم ومصارعهم، وراجت بعض الكتب القديمة التي تتناول هذه الموضوعات. مثل كتاب (مصارع العشاق لأبي بكر مُحَمَّد السراج). وقد اختصره داوود الأنطاكي وهو ممن أقاموا بالقاهرة مدة من الزمن وتوفي حوالي سنة ١٥٩٠ وسمي المختصر (أسواق العشاق)، وكثر في هذا العصر انتشار المواد المخدرة وبخاصة الحشيش وأنواع السطل، واشتهرت ناحية وجه البركة بغرز الحشاشين ولم ينافسها في هذا الميدان سوى ناحية الحسينية التي كان بها قنطرة على الخليج عرفت بقنطرة الحشاشين، وأخذ الناس يتداولون قصص الحشاشين ونوادرهم وفكاهاتهم. وألف بعضهم في ذلك رسائل وفصولاً فيها ما يدل

على قوة الخيال، وخفة الروح التي اشتهر بها المصريون حتى في عصور المحن والشدائد.

***

وفي هذا العصر انتشر الدخان الذي ظهر في مصر لأول مرة سنة ١٥٩٥ (١٠٢٠هـ) كما ذكر الإسحاقي في تاريخه. وقد سجل لنا رأيه في الدخان فقال: (إن الدخان مضر بالأبدان، وهو يابس الطباع، لا شيء فيه من الانتفاع، مبطل لحركة الجماع، مسود للأسنان، مهرب لملائكة الرحمن، وعاقبته وخيمة، ومداومة شربه ذميمة. يورث النتن في الفم والمعدة، ويظلم البصر، ويطلع بخاره على الأفئدة. ومن زعم أن شربه محرق للبلغم فقد أخطأ فيما زعم، وقوله في ذلك غير صحيح. ولو لم يكن من دناءته إلا ولوع السودان به والأجلاف لكان في ذلك ما يكف عنه الأشراف)، ولم يكن شأن الدخان كشأن القهوة؛ فقد تمسك كثير من فقهاء المسلمين بتحريمه. وما زال المسلمون في اختلاف من أمره فالوهابيون مثلاً يحرمونه

وكانت تصدر أحياناً أوامر بمنع تعاطيه جهاراً، فقد ذكر الجبرتي في حوادث سنة ١١٥٦هـ (١٧٤٠م) أن الوالي العثماني أصدر أوامر بمنع شرب الدخان في الشوارع وعلى الدكاكين وأبواب البيوت. ونزل ومعه الأغا ونادى بذلك وشدد في الإنكار والنكال بمن يفعل ذلك. وأخذ الأغايم ثلاث مرات في اليوم، وكل من رأى في يده آلة الدخان عاقبه، وربما أطعمه الحجر الذي يوضع فيه الدخان بما فيه النار.

وقد تعصب المتصوفة للدخان كما تعصبوا للقهوة والحشيش من قبل، على أن أوامر منع التدخين جهاراً لم تكن بصفة مستمرة. وإنما كانت تصدر بصفة مؤقتة ثم تهمل عقب صدورها بمدة وجيزة. وما هو السر في تحريم الدخان مع وجود البغاء تحت سمع الحكومة وبصرها، بل وفي حمايتها إذ أنها كانت تفرض ضرائب معينة على كل امرأة تزاول الدعارة؟؟

***

كثرت إذن وسائل التسلية والطرب في وجه البركة، ووجد الناس ما يغريهم بالسهر؛ فالمقاهي فاتحة طوال الليل، وحانات الخمر ومحلات البوظة تملأ الجو بروائحها، وعلى دككها ومصاطبها يجلس المكارون والسواس والحمالون وأرباب الحرف. والسقاة يروحون بينهم ويجيئون حاملين القرع المملوء بالبوظة. أو دوارق الخمر القبرصي والزحلاوي والمصري. وكانت الحكومة العثمانية تحرم على المسلمين الاتجار في الخمور، فانفرد بذلك غير المسلمين وبخاصة اليونانيين والقبرصيين، وهؤلاء يعرفون عند المصريين بالأورام. واشتغل أقباط مصر بصنع الخمر من البلح، وأقام بعضهم مصانع للخمر بوجه البركة. وفي شارع القبيلة بالذات قام مصنعان كبيران، ويلاحظ أن الدولة لم تحرم على المسلمين الاتجار في البوظة مع أنها مسكرة، ولم تحرم عليهم الاشتغال بالدعارة وهي من الكبائر.

وكانت أمكنة الغناء وصالات الرقص تظل تعمل حتى مطلع الفجر وهي مزدحمة بالشبان، والغوازي رائحات غاديات، متبرجات متهتكات،

للقلوب ساحرات، ولما في الجيوب ناهبات، فوجه البركة كان الحي الساهر الذي لا ينام. ليله كله حركة وصخب، وعربدة وتهتك، وخلاعة ومجون، وحشيش وخمر، وكاس وطاس. ونساء وغلمان. وفي ذلك يقول الشيخ حسن العطار وهو من أدباء وجه البركة الذين تأثروا في أدبهم بما تزخر به هذه البيئة الماجنة كما سنرى: (يوقد بها كثير من السرج والشموع، فالأنس بها غير مقطوع ولا ممنوع، وجمالها يدخل على القلب السرور، ويذهل العقل حتى كأنه من النشوة مخمور. ولطالما مضت لي بالمسرة فيها أياما وليالي هن في سمط الأيام من يتيم اللآلئ).

***

وفي أيام الأمير كتخدا رضوان المتوفى سنة ١٧٧٥م انتشرت الفوضى الخلقية في وجه البركة انتشاراً عظيماً، وكانت الحكومة تباركها وتشجعها، وترعاها وتؤيدها. قال الجبرتي: (واعتكف المترجم – يعني الأمير رضوان – على لذاته وفسوقه وخلاعاته وترهاته. وأنشأ عدة قصور وبالغ في زخرفتها وتأنيقها خصوصاً دارة التي أنشأها على بركة الأزبكية. فكان ينتقل في تلك القصور ولاسيما في أيام النيل. ويتجاهر بالمعاصي والراح والوجوه الملاح. وتبرج النساء ومخاليع أولاد البلد، وخرجوا عن الحد في تلك الأيام. ومنع أصحاب الشرطة من التعرض للناس في أفاعيلهم، فكانت مصر في تلك الأيام مراتع غزلان، ومواطن حور وولدان، فكأنما أهلها خلصوا من الحساب ورفع عنهم التكليف والخطاب. وقصدته الشعراء، ومجدوه بالقصائد والمقامات والتواشيح، وأعطاهم الجوائز السنية،

وداعب بعضهم بعضاً فكان يغري هذا بهذا، ويضحك منهم ويباسطهم. واتخذ له جلساء وندماء، منهم الشيخ علي جبريل، والسيد حمودة السديدي، والشيخ مصطفى اللقيمي الدمياطي صاحب المدامة الأرجوانية في المدائن الرضوانية. وامتدحه العلامة الشيخ يوسف الحفني بقصائد طنانة. وللشيخ عمار القيرواني مقامة مدحا في المترجم، ومداعبة للسيد حمود السديدي المحلاوي. وأجابه بأبلغ عنها مقامة وقصيدة من رويها أديب العصر الشيخ قاسم بن عطاء الله المصري، والأديب الفاضل الشيخ عبد الله الإدكاوي، والعلامة السيد قاسم التونسي. وألف فيه الشيخ عبد الله المذكور كتاباً سماه: (الفوائح الجنانية في المدائح الرضوانية) جمع فيه ما مدح به الأمير رضوان من قصائد ولطائف وتواشيح)

وقال الجبرتي مشيراً إلى قصور هذا الأمير: (أنشأ قصراً في الأزبكية له قباب عجيبة الصنعة، منقوشة بالذهب واللازورد، والزجاج الملون والألوان الزاهية والصنائع الدقيقة، وبنى قصراً آخر مطلاً على الخليج الناصري وبوسطه بحيرة تمتلئ بالماء من أعلى وينصب منها إلى حوض من أسفل ويجرى إلى البستان في سقى الأشجار. وبنى قصراً آخر بداخل البستان مطلاً على الخليج. فكان يتنقل بين هاتيك القصور وبخاصة في أيام النيل).

هذا بعض ما ذكره الجبرتي عن الأمير رضوان، وقد كان أحد قصوره يقع في ميدان العتبة الآن. وتداولته الأيدي بعد موته حتى دخل في حوزة عباس باشا الأول فأعاد بناءه وسماه (قصر العتبة الخضراء) ومن هنا أخذ الميدان اسمه. ويبدو من سيرة رضوان وسلوكه وأخباره أنه تشبه ببعض

خلفاء بني العباس، وحاكاهم في حياتهم الخاصة. فسكر وعربد، وأحيا الليالي بالرقص والغناء، ونادم الأدباء والشعراء ومنحهم جزيل العطاء، وقد شيد الأمير رضوان قصراً بجوار قصره بالأزبكية لطبيبه الخاص علي بن جبريل المتوفى سنة ١٧٥٣ وكان علي ماهراً في الطب، ولذلك عين شيخاً لدار الشفاء بالمارستان المنصوري.

***

ومن أدباء وجه البركة الذين ذكرهم الجبرتي: قاسم بن عطاء الله المصري المتوفى سنة ١٧٨٥، كان قاسم يعرف بالزجال لإتقانه فن الزجل بحيث لم يكن أحد من أدباء عصره يجاريه في هذا الفن. وامتاز بموهبته في ارتجال الشعر، ونظم كثيراً من الأغاني التي تداولها المغنون في عصره وذاعت وانتشرت بين الناس. وله مزدوجة طويلة مدح بها الأمير رضوان، بدأها بوصف حدائق الأزبكية وما فيها من أشجار وأطيار، ورياض وغياض، وجداول وورود. وتكلم فيها عن الغرام وجمال الخدود والعيون والشعر، والعناق والتقبيل، والأوقات الطيبة التي قضاها بين الكاس والطاس في أحضان هذه الطبيعة الفاتنة، فمن ذلك قوله:

روض بـه مـاء الحيـاة جـاري   خضـر النبـات منـه بالجـواري

فيـه خيـال الـورد باحمـرار   يـرى لـه في المـاء زنـد واري

وعجب في الماء قدح الزند

حديقـــة بهـــا الســـرور محـــدق		جـــدولها مسلســـل منطلـــق

في جوهـــا نجـــم الزهـــور مشـــرق		وبانهـــا طـــوراً يميـــل ويســـرق

من وجنة الماء احمرار الورد

باكـــر صـــبوح روضـــة الزهـــور		فـــأبرك الأشـــياء في البكـــور

ورد علـــى اللـــذات والســـرور		واتـرك هـوى وسـاوس الصـدور

فمنهل اللذات عذب المورد

مـا أحسـن الصـبوح في الصـباح		والسكر في روض الربى يا صاح

علـــى حـــدود الـــورد والتفـــاح		والـريح تـدني مبسـم الأقـاح

للسم هاتيك الحدود الورد

والـورق مـذ غنـت على العيـدان		بلـين قـد مـاس غصـن البـان

والآس فوق وجنة النعمان		مـن ذا رأى الجنـة في النـيران

عجبت للتأليف بين الضد

وانظـــر إلى تلهـــب الشـــقيق		غيظـــاً علـــى نيلـــوفر غريـــق

يومي لبنت الكرم بالتعنيق ومــل إلى الرمــان بالتحقيــق

تراه في صدر الربى كالنهد

ثم استطرد فوصف الخمر في مجلس شراب قضاء بين تلك الحدائق الغناء، فقال:

لله مــا أبهــى ومــا أســناها في كأسـها كالشـمس في مرآهـا

يسـعى بهـا البـدر وقـد أدناهـا مـن شـفتيه اللعس مـا أحلاهـا

إذ مزجت من ريقه بالشهد

شــعاعها ســطا علــى النــدمان ساوى شجاع العقل بالجبان

ومالــت الحمــراء في الميــدان بـين صـفوف صـحبة القنـان

كأنها نم الدما في برد

مليكـــة لطيفـــة المـــزاج تختــال في بــرد مــن الــديباج

علــى جــواد أشــهب الزجــاج ببهجــة احمرارهــا الوهــاج

تحكى خدود قاتلي بالصد

لا تنكــروا بعــد الحجــى جنــوني تهتكــي مــن ذلــك المصــون

وحــدثوا إن تصــفوا شــجوني بــه عــن البحــر وعــن عيــوني

بدمعها لم تطف نار وجدي

أبحتـــــه قلـــــبي وجفـــــني لمـــا أراني منـــه وجهـــاً حســـناً

وطرفـــه الســـاحر لمـــا أن رنا بســـحره كلـــيم قلـــبي فتنـــا

ولم يجد عن طوعه من بد

فإذا تأملنا في هذا الشعر وجدنا الشاعر قد صور هذه البيئة تصويراً مأخوذاً من واقع الحياة فيها، لا من وحي الخيال، ولا من وحي التقليد للقدماء وترديد أقوالهم ومعانيهم، ونلاحظ البساطة في الأسلوب، والسهولة في التعبير. واتخاذه الأسلوب القصصي والميل إلى الحوار وتنوع الأساليب. فمرة يتخذ أسلوب الخطاب، ومرة أسلوب الغائب، ومرة أسلوب المتكلم.

وقد شبه الشاعر الخمر بالملكة الحسناء، ارتدت ثوبا من الحرير، وامتطت جواداً من الزجاج الأشهب. وبدت في احمرارها الصارخ كأنها خدود محبوب امتنع عن عاشقه وأعرض عنه حينما هم به.

كان قاسم محباً لمجالس اللهو والأنس، يجتمع مع أصدقائه من أدباء عصره كابن الصلاحي، وحمدة السديدي، ويوسف الحفناوي في قصر الأمير رضوان أو في حدائق الأزبكية أو في المقاهي والحانات بوجه البركة أو في منزل صديق لهم في تلك الناحية. ولا يقعدهم عن هذه المجالس برد ولا

مطر. ويمضون وقتهم في تناول الخمر وارتجال الشعر، وفي تبادل الملح والنكات. مثال ذلك أن قاسماً حضر أحد تلك المجالس وكان الوقت مطيراً، فقال ابن الصلاحي مرتجلاً:

لقـــدومكم ضـــحك الغمـــا   م فعلـــم العـــين البكـــا

مـــــــا ذاك إلا أنــــــــه   لنـــوال كفــك قـــد حكـــى

فأجابه قاسم في الحال:

أفـــــــديك بالعينـــــــين يا   نجــل الصــلاحي مــع الــذكا

هطـــــل الغمـــــام كأنـــــه   لعزيـــز جاهــك قـــد شـــكا

ومن شعراء وجه البركة في ذلك العصر: مُحَمَّد بن شبانة المتوفى سنة ١٧٩٥ ونرى أثر البيئة الماجنة يظهر في هجائه للشعراء والأدباء. فمن ذلك ما أوردناه له من هجائه لقاسم بن عطاء الله. ورأينا كيف أنه نسب قاسماً إلى بيت (كويك) ووصفه بأنه قواد خطير. وقد ردد هذه الشتائم في شعر آخر، مثال ذلك.

لـــو حـــل في حـــرم الـــوزير   مصـــــاحباً ورأى غلامــــــه

لمضـــى بـــه لأخـــي الهـــوى   في غفلـــة يقضـــي مرامـــه

***

ومن أدباء تلك الناحية: حمودة السديدي المحلاوي، وكان من ندماء الأمير رضوان. وله مقامة في الهجاء:

(فلما وجدني ذلك المأفون الملعون، احترت في حاله الزنيم المحزون، قال: هذا عمار الكافر القواد، من تعلم من فسقه سائر العباد، الملتحف برداء الفساد. هذا الذي جلب المسبة لبلده، هذا الذي لا يتحاشى أن يقود على أخته وأمه وولده. هذا الذي أشاد لبيت التعريض الدعائم).

ومن شعره في الهجاء:

من فاق إبليس من يهجى الزمان به	من حاله في الورى بالفسق مشتهر
من عادم الدين والإسلام فاقده	من أهله ذو خنا بالحق قد فجروا
من منهل الفسق من يفنى المداد ولا	تحصى خبائثه من فيه تقتصر
يا فاجراً قد غدا أعمى البصيرة من	صارت خبائثه للفسق تحتكر

وأثر بيئة وجه البركة في نثر حمودة وشعره لا يحتاج لإيضاح، فهو أظهر من أن يدل عليه. وهذه الشتائم وذلك السباب هو مما نسمعه من سفلة الناس ورعاعهم وحرافيشهم بمقاهي وجه البركة.

ولبيئة وجه البركة أثر عظيم في شعر المجون الذي انتشر في هذا العصر انتشاراً واسع المدى.

وهناك نوع من أدب وجه البركة لا يمكن نشره، وهو من غير شك صورة صادقة لحياة الدعارة والمجون التي أصبحت طابع تلك الجهة. ويعتبر الإدكاوي في هذا الأدب الماجن داعية من دعاة الفسق والفجور، ومروجاً للإباحية الجنسية والفوضى الخلقية، وهو متأثر بهذا المحيط ومؤثر فيه إلى حد كبير، فقد كان الناس يتداولون هذا الأدب الماجن في مجالسهم ومنتدياتهم. وفيه ما فيه من عبارات نابية وألفاظ داعرة، وجمل مكشوفة مثيرة للأعصاب، باعثة للشهوات، محركة للغرائز الحيوانية.

ومن شعراء وجه البركة: مصطفى أسعد اللقيمي الدمياطي المتوفى سنة ١٧٥٥ وقد وصفه الجبرتي بقوله: (أفضل النبلاء، وأنبل الفضلاء، بلبل دوحة الفصاحة وغريدها، من انحازت له بدائعها طريفها وتليدها. ومن محاسن كلامه، وبديع نظامه: (المدامة الأرجوانية في المدائح الرضوانية) التي مدح بها الأمير رضوان)، ومن شعره في مدح الأمير المذكور قوله:

وهــات لي حــديث الأزبكيــة　　　وما حـوت أدواحهـا الزكيـة

حسـناً زهـت أرجاؤهـا السـنية　　　إذ لاح في غرتـــه البهيـــة

قصور رضوان العلا والمجد

يا حبـــذا معاهـــد حســـان　　　يغنيـك عـن وصـفي لهـا العيـان

قـد حـل فيهـا الحـور والولـدا　　　حصـباؤها اليـاقوت والمرجـان

فانظر تراها جنة كالحل

فكـــم بهـــا ن دوحـــة أنيقـــة وروضـــة أغصـــانها وريقـــة

وربـــــوة أنهارهـــــا غديقـــــة ومرجـــة أزهارهـــا عبيقـــة

من نرجس وسوسن وورد

تزخـــو بهـــا حـــدائق الأزهـــار عـن طيـب نفـح عرفهـا المعطـار

تعيد نشر طيها وتبدي

كان الشعراء حينما يصفون بركة الأزبكية وحدائقها يقفون طويلاً أمام المناظر الطبيعية المختلفة. ولا يتركون صغيرة ولا كبيرة إلا أحصوها وتحدثوا عنها وأشبعوا القول ووفوا بالموضوع. وقد ساعدتهم طبيعة هذه المزدوجات على ذلك، فهي لا تتقيد بقافية واحدة، بل تسير حرة طليقة كما ترى. والمزدوجات تحتمل الأسلوب القصصي، وتمكن الشاعر من الإسهاب وإشباع القول في غير ضعف ولا تكلف، ودون أن يدخل على القارئ الملل والسأم.

ومن العائلات العريقة التي سكنت الأزبكية، العائلة البكرية، فقد كانت لها عدة قصور فخمة تطل على البركة. وكانت هذه القصور كعبة للأدباء والشعراء المصريين والأجانب، يسعون إليها، ويقفون بعتباتها، حيث يجدون من كرم أصحابها ما يطلق ألسنتهم بمديحهم، والإشادة بفضائلهم

ومناقبهم، وممن زاروا البكريين ونزلوا في ضيافتهم، عبد الغنى النابلسي من رجال القرن السابع عشر. قال:

(لم نزل سائرين إلى أن وصلنا إلى منزل الهمام بركة الأنام الشيخ زين العابدين البكري الصديقي. فتلقانا بصدره الرحيب وجلست عند حضرته حصة من الزمان في مجلسه المطل على بركة الأزبكية ذات الروح وجلست عند حضرته حصة من الزمان في مجلسه المطل على بركة الأزبكية ذات الروح والريحان، التي فيها نفحة من نفحات الجنان. وتذاكرنا معه في بعض المسائل العلمية والمطارحات الأدبية. وقد أنزلنا الشيخ في دار لصق داره بحيث لم نخرج عن ظله وجواره.).

وقال: (...وكان الشيخ زين العابدين قد دعانا في ذلك اليوم إلى ضيافته. وكان المجلس حافلاً بأفاضل العلماء وأعيان الكبراء. وحضر السماع وتحركت الآلات، وسكنت النفوس والأصوات. ولم نزل في ابتهاج وسرور، ومؤانسة وحضور حتى مدت الموائد وجرت العوائد. وكان ذلك في المجلس المطل على بركة الأزبكية. ثم بعد صلاة المغرب بالجماعة فتح باب هاتيك القاعة. فدخلنا من دهليز مفروش بأنواع الأحجار. وقد أوقدت الشموع حتى كان ذلك الليل كأنه النهار، فوصلنا إلى ميدان مفروش بالرخام والمرمر في ألوان كأنه قلائد العقيان. وهناك إيوان يقابله آخر أوسع من صدر الكرام، وأجمل من صفحات الوجوه، وأعطر من الزهر في الأكمام. ورأينا الثريات من القناديل المشغولة ما تبقى ببهجته النفوس

والعيون مشغولة. وأطلقت مباخر العود، وقامت مواسم الشهود ونادى لسان الحال حين خاطب وقال):

يا صـاحب العـودين لا تهملهمـا   حـرك لنـا عـوداً وحـرق عـوداً

إلى أن قطعنا حصة من مسافة الليل، وتقلص ضوء الثريا فشمر للمغيب الذيل، فقدمت المآكل السكريات، والحلاوات الشهيات. ثم قدم العود والعنبر المشهور، وانهل مطر ماء الورد من تحت غيم البخور، وقد تفرق الجمع، ووقف نور اللمع).

***

وقد نهض الغناء بوجه البركة نهضة واسعة المدى، وكثر المغنون والمغنيات، والضاربون على الدف والطار والعود والأرغول، والماهرون في استخدام المزمار. ويقول بعض المؤرخين إن نهضة الغناء المصري ترجع إلى نهاية القرن السابع عشر، حينما قدم إلى القاهرة الملحن الشامي المشهور شاكر الحلبي. فهو الذي علم المصريين فن التلحين وكانوا يجهلونه جهلاً تاماً. وهذا الفن الذي أدخله شاكر إلى مصر. هو ما تبقى من الغناء العربي القديم، لم يزد عليه شيء. وقد رحب المصريون بالشيخ شاكر وأكرموا مثواه وأقبلوا عليه يأخذون منه ويتلقون عنه. وخيل إليهم أنهم حصلوا على كنز نفيس. واحتكر تلاميذ الشيخ شاكر هذا الفن وضنوا به على غيرهم، فانحصر الغناء في دائرة ضيقة في أول الأمر، ولكنه انتشر بعد ذلك بفضل الحاجة إلى المطربين. فقد كثرت الموالد وظهرت طبقة الوالدية الذين

ينتقلون من بلدة إلى بلدة، ومن قرية إلى قرية، يحيون الليالي في الموالد، وفي حفلات الزواج. وظهرت كذلك طائفة المنشدين الذين ينشدون شعر التصوف والمديح النبوي في حلقات الأذكار، واحتاجت المقاهي الكثيرة إلى المغنين مما دفع أفراد تلك الطائفة إلى الإجادة والإتقان ليحوز كل منهم قصب السبق، فتنهال عليه الأرباح الوفيرة.

***

واتصل المغنون بالشعراء يلتمسون منهم نظم المقطوعات الغنائية المناسبة للعصر الذي يعيشون فيه. وقد لبى الشعراء هذه الدعوة. ونظموا كثيراً من الأدوار الغنائية التي تسيل رقة وعذوبة.

وفي تراجم معظم شعراء هذا العصر نجد مثل هذه العبارة: (وله موشحات وأزجال ومقطوعات عديدة مشهورة بين أرباب الفن والأغاني، ومنتشرة بين الناس يتغنون بها في أوقات سمرهم). ومن الشعر الغنائي الذي اشتهر في هذا الوقت، قول الشيخ عبد الله الشبراوي:

وحقك أنت المنى والطلب   وأنت المراد وأنت الأرب

ولى فيك يا هاجري صبوة   تحير في وصفها كل صب

أبيت أسامر نجم السما   إذا لاح لي في الدجى أو غرب

ومن أغاني الشبراوي:

والله مليح وجميل وكامل الأوصاف وأنا أحبه ملو قلبي وأهواه

لطيف ظريف الشكل مالوش مثيل في وقته أما كلامه ما أخلاه

وقوله:

شفته على غفلة قوي حبيته أسمر ومن طبعي أحب الأسمر

ميلت ناغشته لقيت له رقه ولطف زايد والبشاشة أكتر

يا أهل الأدب والله وحق المختار ماشفت عمري في الجمال مثله

قمر مصور مانظرتش حسنه في حد من بعده ولا من قبله

ومن أشهر مغنيي مصر في أوائل القرن التاسع عشر: مصطفي الصيرفي، وإبراهيم الوراق، والمقدم، وحسن قشوة، والحبابي. وكان التنافس على أشده بين الصيرفي وحسن قشوة، وقد انتصر الخشابة للصيرفي، وقال في ذلك شعراً نذكر منه:

صوت رقيق ولحن حين يعربه يأتي بما عنه تعيا طاقة البشر

فلو تغنى لميت مات من قدم جرت به الروح جري الماء في الشجر

وعرض بمنافسه فقال:

مـا رام يحكيـه في إتقانـه حسـن إلا وجـاء بقـبح غـير منحصـر

وانتشرت في وجه البركة أمكنة خيال الظل، وكانت تعرض فيها مسرحيات مبسطة يغلب عليها التحريض على الفسق، والدعوة إلى ارتكاب الفاحشة. ومن هذه المسرحيات التي كانت تعرض على الجمهور مسرحية (علم) وتتألف شخصياتها من:

١) فتاة جميلة خليعة من بنات وجه البركة اسمها (علم).
٢) شاب سكران اسمه (تقادير).
٣) بائع قناديل (مصابيح).
٤) ضارب رمل مغربي.

تبدأ المسرحية بمرور بائع القناديل منادياً على بضاعته بصوت رخيم. فتسمعه الفتاة (علم) وهي مضطجعة في سريرها، فتناديه قائلة:

علـــم: عـــم يا بيـــاع اوصـــف لي بتاعـــك

وفي هذه اللحظة يمر شاب ثمل يتمايل يمنة ويسرة من كثرة ما شرب من الخمر فيسمع صوت علم، فيقف ويتغنى بصوت شجي.

تقادير السكران:

الدكـــــــر اللـــــي معـــــاي		لم يكـــن في الـــوزن متلـــه

لمـــا شـــافك ســـال دمعـــه		لمـــا شـــافك شـــت عقلـــه

امســـــكي راســــه بإيـــــدك		تنظـــــري شـــــغله وفعلـــــه

إنمـــا مـــــن حســـــن طبعـــه		تلتقيـــــه في الليـــــل يفــــأر

بخـــــت مــــــن جالـــــه وزاره		في قيامـــــــه لم يقصــــــــر

(ثم سكت تقادير، وكأنه أفرغ كل ما جعبته ولم يعد معه شيء يقوله. فأسند ظهره إلى الحائط) وتكلم بائع القناديل رافعاً صوته بغناء عذب جميل، يخلب القلوب، ويجذب النفوس.

بائع القناديل:

إذا رغبــــت يا علــــم شمعـــــدان		حاضر معي لأجل اجتماع العزاز

تعـــالي وشـــوفي بضـــاعة زمـــان		تحـــيرت فيهـــا بنـــات الحجـــاز

(علم تغادر فراشها وتبادر بالنزول إلى الشارع لتعاين القناديل بنفسها وتنتقي منها ما يعجبها. وقبل أن تنزل، وقفت في نافذة حجرتها وأخذت تغني بصوتها المطرب المرقص).

علم:

سيدي قف لما أنزل وأشوف   إن كان معك قنديل جميل

حضر معك قنديل بنور عظيم   في الضي أنواره كشمع الفتيل

لكن يكون أبيض مضلع تخين   أفرح واتهنى إن كان طويل

ثم تترك النافذة وتنزل تتهادى في مشيتها وقد ارتدت ثوباً أحمر. وأخذ البائع يتغنى مرحباً بها، فقال:

بائع القناديل:

يالـلا يا علم انزلي واشتري   دا قصدي منك تمام الجميل

علم تقف أمام البائع وتغني بقولها:

أنا مرادي يا خليلي منك   قنديل أحطو على فرش عالي

أحبك إن كان ينور ضياه   في مجلس الأحباب عظام الجمال

لأن العذارى هنا يحضروا   في العيد يهنوني وأنا كالغزال

وقف وفرجني على اللي معاك   أحبك إن كان مالوش مثيل

وأطلعك عندي في قصري قوام   وأنزهك على نهدي وخصري الجميل

وقد حضر الرمال هذه المحاورات، فتدخل في الموضوع، وعرض على الفتاة أن يكشف لها عن طالعها، ويعرفها بمستقبلها، ويخبرها بما سيحدث لها من أفراح وأحزان.

وليس من الضروري أن نتابع المسرحية إلى نهايتها، لما فيها من فحش. وإذا كان هدفها هو إثارة الغرائز الحيوانية، فقد تحقق فيها هذا الغرض إلى حد بعيد. ومن العجيب أن مؤلفها ختمها بامتداح خير الورى الذي أتى بالهدى مبشراً، ونذيراً مطهراً.

ولم يكن عند أدباء هذا العصر أي مانع من أن يبدءوا إنتاجهم بذكر اسم الله والصلاة على نبيه وأصحابه والتابعين له بإحسان. ثم ينتقلون من ذلك مباشرة ودون أي تمهيد إلى ذكر أقبح أنواع المجون، والتحدث عن المعاصي والموبقات وإيراد أسماء العورات. ثم يختتم هذا كله بالصلاة على النبي الهادي.

وقد نشطت الحركة التجارية بوجه البركة نشاطاً عظيماً. فهذا عطار يبيع الحناء والعطور، وجوزة الطيب والبخور واللادن، وهذا بائع فطير بجواره إسكافي، على يمينه حداد بالقرب منه سمكري، بجانبه جزار بإزائه حلاق وبقال وهكذا. والسقاءون يروحون ويغدون. والفرانون منهمكون في عملهم ليل نهار. وروائح المأكولات منتشرة في الجو، وقد اختلطت رائحة الطعمية برائحة الشواء. وباعة الفواكه جالسون في الشوارع والطرقات. وقد وصف الجبرتي حالة البلاد قبيل الغزو الفرنسي، فقال:

(وكان الوقت غاصاً بالأكابر والرؤساء وأرباب الفضائل، والناس في بلهنية من العيش، وأمن من المخاوف والطيش...).

وامتاز وجه البركة بأنه كان موطناً للصوص والمحتالين. وكانت أزقته الضيقة وحاراته الملتوية وكراً عظيماً للنساء اللاتي احترفن السرقة إلى جانب الدعارة، وقد اهتزت مدينة القاهرة ذات يوم حينما اكتشفت عصابة خطيرة من النساء الساقطات أطلقت على نفسها اسم (بقر الوحش).

كانت المرأة من هذه العصابة تخرج متجولة في شوارع وجه البركة، فإذا وقعت عينها على رجل تتوسم فيه الغنى، احتكت به وتعرفت عليه، وصحبته إلى منزلها الذي يقع بين أزقة ضيقة ملتوية متشابهة، حتى يصعب على رجال الحكومة أن يهتدوا إليه. فإذا دخلت منزلها مع ضحيتها، بادرت فخلعت ملابسها ثم أحضرت الخمر وملأت الكأس وقدمته له، حتى إذا سكر وفقد وعيه دعت خادمها فيبادر ومعه وسادة يضعها على وجه السكران الذي يكون متمدداً في الفراش. ويجلس عليها ويظل كذلك حتى يموت الرجل. وحينئذ تنهض المرأة فتجرده من ملابسه ونقوده، وتدفنه في منزلها. وسميت ببقر الوحش، لأن أفرادها كالوحوش المفترسة، وحينما اكتشف أمر هذه العصابة، صدر الأمر بإعدام جميع أفرادها.

وكانت هناك عصابات أخرى منها عصابة (البقر السارح) وتتألف من نساء ساقطات، يختلطن بالناس ويذهبن معهم إلى بيوتهم، وقبل كل

شيء يطلبن الخمر. ويجلس صاحبها ليشربوا معا. وهي تتظاهر بالشرب. فإذا سكر نهضت وعرفت أسرار المنزل، وحملت ما خف حمله وغلا ثمنه وانصرفت آمنة مطمئنة، ومن هذه العصابات، عصابة (ربات المزاري البيض) ومهمة أفراد هذه العصابة، أن تندس المرأة في وسط الازدحام وتمد يدها إلى الجيوب وتسرق ما فيها، أو تذهب إلى الدكاكين وتتظاهر بالشراء، ثم تنتهز الفرصة وتسرق ما تشاء، وهذه الطائفة تسمى أيضاً (البقر الحلاب) لأن نساءها يحلبن الناس بهذه الكيفية.

وهذه العصابات كلها تتألف من الجعيدية والغجر. وهناك طائفة من الصبيان اسمها (الشموطة) وهؤلاء مخنثون ولصوص. وطائفة الخطافين، وأكثر ما يخطفون العمائم. وكانوا ينتهزون فرصة مرور الإنسان بمفرده في جهة نائية وحينئذ ينقض عليه شخص ويخطف عمامته ويختفي في لمح البصر.

الفرنسيون في وجه البركة

لما دخل الفرنسيون مدينة القاهرة، وقع اختيارهم على وجه البركة ليكون مقراً لهم ومقاماً؛ فنزل نابليون في قصر الألفي، وكان هذا القصر يشغل مساحة واسعة تبدأ من شارع الألفي وتنتهي قبل شارع قنطرة الدكة. وقد فرغ من بنائه قبل وصول الفرنسيين بشهرين، وأنفق الألفي على بنائه مبلغاً طائلاً واستعان ببعض المهندسين والعمال الإيطاليين. وأقام من خارجه أسواراً مرتفعة سميكة لم تؤثر فيها القنابل. وفي داخله حديقة غناء بديعة التنسيق بها نافورات جميلة ذات أحواض من الرخام، وبها أزهار وأشجار مختلفة الأشكال والألوان، وبها طيور جميلة، بعضها للزينة وبعضها للأكل. وبأعلى السور حجرات خاصة لإقامة الحراس المكلفين بحراسة القصر ليلاً ونهاراً. وبالحديقة تكاعيب من العنب وأكشاك يظللها شجر اللبلاب، كان الألفي قد أعدها ليقضي بها أوقات فراغه مع خاصته والمقربين لديه. فأراد الله غير ذلك.

وكان القصر يتألف من طابقين، وله أبواب ضخمة من الخشب الهندي مصحفة بالنحاس الأصفر. وأرضه مبلطة بالرخام الملون. ونوافذه معدة بالزجاج الملون ومشغولة بالحديد. وللخدم قسم خاص، وللحريم جناح منفرد.

والقصر كله مفروش بالأبسطة الفاخرة، والقناديل معلقة في كل مكان، وبه عدد كبير من الشمعدانات الواردة من بلاد الإفرنج، وكل شمعدان يتسع لمائة شمعة. وبه مخازن خاصة للمأكولات والأدوات المنزلية والأثاث والملابس، ومخازن للسلاح وأدوات القتال.

ولما انتهى إعداد القصر من حيث البناء والتأثيث أقام صاحبه احتفالاً عظيماً بمناسبة انتقاله إليه، فدعا الأمراء والأعيان ومد لهم سماطاً هائلاً حوى كل ما لذ وطاب، وأشعلت القناديل والشمعدانات، فخيل إلى الحاضرين أن الوقت نهار مع أنهم كانوا في الليل، ولما فرغوا من الأكل، انتقلوا إلى بهو متسع لمشاهدة الراقصات وسماع المغنيات.

وبعد أسبوعين من هذا الاحتفال، سافر الألفي إلى مديرية الشرقية، وفي مدة غيبته نزل الفرنسيون في الإسكندرية، وساروا منها إلى القاهرة. ولما سمع الألفي بذلك غادر مصر إلى الشام، واستقر نابليون في هذا القصر الفخم، وسكن أعضاء هيئة القيادة في القصور المطلة على البركة. وكان من نصيب الجنرال (مجلون) أن يستولي على قصر مراد بك، أمام تمثال إبراهيم باشا حالياً، وسكن بوسليك مدير الحدود ببيت البكري القديم (بالقرب من دار الأوبرا حالياً).

وحينما استقر الفرنسيون بوجه البركة، شرعوا يدخلون بعض التنظيمات الحديثة كالعناية بكنس الشوارع ورشها بالماء، وتحريم إلقاء القاذورات أمام المنازل والدكاكين، وإلزام كل شخص بأن يضع قنديلاً على

واجهة منزله أو دكانه. ثم هدم الفرنسيون كثيراً من المباني ليوسعوا بعض الشوارع، وليوجدوا بعض الميادين. فمدوا طريقاً يبدأ من قصر الألفي ويمر بباب الحديد ثم يتجه مخترقاً حي الفجالة فحي الظاهر فجامع الظاهر وينتهي بميدان الحسينية. وهذا الطريق ما زال موجوداً.

وقد أعجب الجبرتي بنظام العمل الذي اتبعه الفرنسيون في شق هذا الشارع وتمهيده ورصفه، كما أعجب بالأدوات التي استخدمت في ذلك، ولم تكن معروفة عند أهل مصر. ولما انتهوا منه زرعوا الأشجار على جانبيه، وكانت الضرورة الحربية هي التي دفعت المحتلين إلى شق هذا الطريق وتمهيده بكيفية تجعله صالحاً لمرور العربات الكبيرة الضخمة المخصصة لحمل المدافع والذخائر والمؤن والجنود، ومهدوا شارعاً آخر يبدأ من قصر الألفي ويسير إلى شارع المغربي حالياً ثم يتجه إلى أبي العلاء، وشيدوا مسرحاً ضخماً بناحية غيط النوبي، كان يدخله الجنود وعائلاتهم، وتمثل فيه الروايات باللغة الفرنسية. كما شيدوا مدرستين بالقرب من ميدان الخازندار حالياً لتعليم أبنائهم وبناتهم، وبنوا عدداً من الورش، بعضها للنجارة، وبعضها للحدادة. وأنشأوا أندية وملاعب لجنودهم. كما أنشأوا عدداً من الثكنات ومخازن للوازم الجيش.

وفي بدء الاحتلال الفرنسي، اجتهد المحتلون في إرضاء سكان وجه البركة بنوع خاص لأنهم يقيمون بينهم؛ فكانوا يشترون منهم المأكولات بأكثر من أسعارها الحقيقية؛ فأثرى كثيرون من السكان في مدة وجيزة، وأقبل الناس وبخاصة الأجانب كالأروام والطليان على السكنى في حي وجه

البركة. كما كثر عدد الأقباط في تلك الجهة خلال الاحتلال الفرنسي. واشتغل أقباط وفرنجة كثيرون في الجيش الفرنسي وفي الأعمال المدنية التي كانت تقوم بها الإدارة الفرنسية. ومن هذا التاريخ نجد أن حركة العمران أخذت تزحف إلى ناحية الفجالة والظاهر.

وفي ذلك الوقت كثر وجود المكارين في هذه الناحية، وذلك لأن الفرنسيين رجالاً ونساء كانوا مغرمين بركوب الحمير وسوقها سوقاً عنيفاً مع المزاح والضحك والقهقهة، وكانت النساء الفرنسيات يخرجن سافرات، ويملأن شوارع الأزبكية وطرقاتها ويتحدثن مع الباعة. وقلدهن كثير من نساء مصر وبخاصة هؤلاء اللاتي تزوجن من الفرنسيين؛ فقد كان الجندي الفرنسي يذهب إلى الرجل المسلم، وينطق بالشهادتين، ويعلن دخوله في الإسلام. وبمجرد أن يفعل ذلك، يطلب من المسلم أن يزوجه بنته، فيرحب به لأن الجندي الفرنسي قادر على حماية المسلم، وقادر على الإنفاق على زوجته. وكانت المرأة المصرية تفرح بزواجها من الفرنسي لما تجده عنده من حسن المعاملة وكرم الأخلاق والأدب والاحترام.

وكان هناك جنود فرنسيون كثيرون لم يتزوجوا، بل آثروا حياة العزوبة، وهؤلاء كانوا يقصدون إلى بيوت الدعارة التي انتشرت في هذه الجهة. وقد فرض الفرنسيون الرقابة الصحية على المشتغلات بالدعارة، وقيدوا أسماءهن في سجل خاص، وألزموا جنودهم بالذهاب إلى الأماكن المسجلة وذلك حرصاً على سلامتهم من المؤامرات والاغتيالات. ومن هذا التاريخ اتخذت الدعارة في مصر شكلاً رسمياً وانحصرت بصفة علنية في وجه البركة،

وسجل الفرنسيون أسماء القوادين، وجعلوهم مسئولين أمامهم عن كل ما يقع على الجنود من سرقة وقتل. ولما كان الجندي الفرنسي لا يأمن على نفسه إذا دخل منزلاً متسعاً، فلذلك استحسنوا أن تقيم البغي في دكان ليكون الجندي قريباً من الشارع، وليمكنه أن يستغيث إذا دعت الحاجة إلى ذلك، وأمروا كل مومس بأن تضع على واجهة محلها مصباحاً، وأن تكتب السعر الذي تحدده لنكاحها. ولما كانت الكتابة باللغة الفرنسية متعذرة فقد اهتدى الغوازي إلى حل لهذه المشكلة، فاستخدمن الرموز الدالة على السعر. فتغمس إحداهن يدها في سائل أحمر، وتطبعها على واجهة محلها. فإذا ما أبصره الجندي أدرك أنها تأخذ خمسة أنصاف. وإذا وجد شكل يدين فمعناه أنها تأخذ عشرة أنصاف. وهذا غير الأتعاب التي يتناولها (الخلبوص) وهو الذي يقوم على خدمة الزوار ويرحب بهم.

***

وفي سنة ١٧٩٨م احتفل الفرنسيون احتفالاً عظيماً بعيد الحرية فأقاموا بشوارع وجه البركة الأعمدة، وعلى كل عمود العلم الفرنسي المثلث الألوان. وأقاموا أعمدة أخرى وعلقوا بكل عمود مصباحاً، وشيدوا عدداً من أقواس النصر، ورسموا عليها بعض المواقع الحربية التي جرت بينهم وبين المماليك، وصوروا المماليك في صورة المنهزمين الفارين، أو القتلى على الأرض وقد وطئتهم خيول الفرنسيين.

ووقف نابليون على منصة عالية أمام قصره تحيط به هيئة أركان الحرب، واستعرض جنود الحملة الذين مروا أمامه بكامل معداتهم، مرتدين الملابس النظيفة الجميلة. وقد دعي إلى هذا الاستعراض عظماء المصريين فشاهدوا ما أدهشهم، ثم جرت مناورة حربية. وفي الليل أقام نابليون مأدبة عشاء فاخرة، وأشعلت المصابيح في كل مكان بالأزبكية، وأطلقت الصواريخ، وخرج الجنود جماعات جماعات، ينشدون أناشيدهم الوطنية بأصوات مرتفعة. وأمضوا الليل كله في سكر وعربدة، وغناء ورقص، لا فرق في ذلك بين الضابط الكبير والجندي الصغير، فعلى شواطئ البركة وفي حدائقها عقدوا حلقات الرقص والغناء، ومجالس الخمر واللهو. واشتركت مصريات كثيرات في هذه الحفلات، وقد أعجب الفرنسيون بالرقص المصري الذي تتلاعب فيه الخصور، وتهتز البطون، ولذلك كانوا يدفعون مبالغ طيبة للراقصات الفاتنات.

***

وقد كان بعض الأدباء المصريين وقت الاحتلال الفرنسي يقضون الليالي في وجه البركة بين مراقصها ومغانيها. نذكر منهم الشيخ حسن العطار (قبل أن يلي مشيخة الأزهر) فقد اختلط بالجنود الفرنسيين المقيمين بتلك الجهة وعشق بعضهم، وحفظ بعض مفردات لغتهم، وأوردها في شعره، فمن ذلك قوله:

أقــول وصـــلا، يقــول: نونـــو   أقـول هجـرا، يقـول: سـي سـي

ومن هؤلاء الأدباء الشاعر المشهورين إسماعيل الخشاب، وقد تنافس هو والعطار على غلام فرنسي اسمه (ريج) وأخذ كل منهما ينظم القصائد الغزلية في هذا الغلام، يعبر فيها عن عواطفه الفياضة، وحبه العميق. ويبدو أن الشيخ العطار قد أضر به حب هذا الفرنسي حتى أشرف على التلف. وكان العطار يسكن حجرة بالقرب من الرويعي، لأنه كان من أسيوط ووفد على القاهرة لطلب العلم. وفي هذه الحجرة، أمضى ليالي كثيرة مع صديقه الحميم إسماعيل الخشاب، وكانا متلازمين طول وقتهما لا يستطيع أحدهما فراق الآخر. ومن قول الشيخ العطار في الغزل بهذا الغلام الفرنسي:

أما فؤادي فعنك ما انتقلا

فلم تخيرت في الهوى بدلاً

يا معرضا عن محبة الدنف

ومغرماً بالجمال والصلف

ومن به زاد في الهوى شغفي

أما كفى يا ظلوم ما حصلا

حتى جعلت الصدود والملا

مذهب

فعارضه الخشاب بقوله:

يهتز كالغصن ماس معتدلاً

أطلع بدراً عليه قد سدلاً

غيهب

يزري بسمر الرماح إن خطرا

ساحر جفن لمهجتي سحرا

علم عيني البكاء والسهرا

فكيف أبغي بحبه بدلاً

وليس لي عنه جار أو عدلاً

مهرب

وفي صداقة العطار والخشاب يقول الجبرتي: (يترنمان بمحاسن الغزلان، وما وقع لهما من صد وهجران، ووصل وإحسان. فكانت تجرى بينهما منادمات أرق من زهر الرياض، وأفتك بالعقول من الحدق المراض، وهما حينئذ فريدا وقتهما، ووحيدا عصرهما لم يعزا في ذلك الوقت بثالث، إذ

ليس من يدانيهما فضلاً عن مساواتهما في تلك الشئون، التي أربت على المثاني والمثالث، واستمرت صحبتهما، تزايدت على طول الأيام مودتهما).

(وبعد أن رجع الشيخ حسن العطار من سياحته، مازج المذكور – يعنى الخشاب– وخالطه ورافقه ولازمه. فكانا كثيراً ما يبيتان معاً، ويقطعان الليل بأحاديث أرق من نسيم السحر، وألطف من اتساق نظم الدرر).

ويعتبر الشيخ العطار من أدباء وجه البركة؛ فقد تأثر بالمحيط الذي عاش فيه إلى حد بعيد، وانعكس صدى هذه البيئة في أدبه، وقد وصف بركة الأزبكية، فقال:

(وأما بركة الأزبكية فهي مسكن الأمراء، وموطن الرؤساء، قد أحدقت بها البساتين الوارفة الظلال، والعديمة المثال، فترى الخضرة في خلال تلك القصور المبيضة كثياب سندس خضر على أثواب من الفضة. يوقد بها كثير من السرج والشموع فالأنس بها غير مقطوع ولا ممنوع. وجمالها يدخل على القلب السرور، ويذهل العقل حتى كأنه من النشوة مخمور. ولطالما مضت لي بالمسرة فيها أياما وليالي هن في سمط الأيام من يتيم اللآلئ. وأنا أنظر انطباع صورة البدر في وجناتها، وفيضان لجين نوره على حافاتها وساحاتها. والنسيم بأذيال ثوب مائها الفضي لعاب، وقد سل على حافاتها من تلاعب الأمواج كل قرضاب[٢٣] . وقام على منابر

---

(٢٣) القرضاب: السيف.

أدواحها[٢٤] في ساحة أفراحها مغردات الطيور، وجالبات السرور، فلذلك العيش بها موصول، وفيها أقول).

بالأزبكيـــة طابـــت لي مســـرات ... ولـذ لي في بـديع الأنـس أوقـات

حيـث الميـاه بهـا والفلـك سـابحة ... كأنهـا الزهـر تحويهـا السـماوات

مدت عليها الروابي خضر سندسها ... وغــردت في نواحيهــا حمامــات

والماء حين سرى رطب النسيم به ... وحـل فيـه مـن الأدواح زهـرات

كابغـــات دروع فوقهـــا نقـــط ... من فضـة واحمـرار الـورد طعنـات

وللنـــديم بهـــا عـــيش تســـاعده ... علـى اغتنـام دواعيـه المسـرات

يروح منها صريع العقل حين يرى ... علـى محاسـنها دارت زجاجـات

وللرفـــاق بهـــا جمـــع ومفـــترق ... لما غدت وهي للندمان حانات

***

وقد سبق أن ذكرنا أن الفرنسيين في بدء الاحتلال، اجتهدوا في كسب سكان وجه البركة. وها هو العطار بصف موقف سكان تلك الجهة من المحتلين، فيقول: (أهل هذه الجهة – يعنى جهة وجه البركة – لهم (أي

(٢٤) الدوحة: الشجرة الضخمة.

للفرنسيين) مسالمون، ولكثير منهم مخالطون، لم يقع منهم نزاع ولا شر، ولا كر في مقاتلتهم ولا في...).

وقد سجل العطار زياراته لأصدقائه من الفرنسيين، فقال متحدثاً عنهم وعن الأثر الذي تركته في نفسه تلك الزيارات:

(قد أشربوا في قلوبهم حب العلوم الفلسفية، وحرصوا على اقتناء كتبها، وإعمال الفكرة فيها والروية، يبحثون عمن له بها إلمام، ويتجاذبون معه أطراف الكلام. ثم لما استقررت بالأزبكية، وتخلصت من هذه البلية، ذهبت إلى دار صاحب تسرني رؤيته، تنشرح لمخالطتي له رويتي ورويته قد أحرز قصب السبق في ميدان هذه العلوم، وصار هو المشار إليه في مصرنا بين أرباب هذه الفهوم. فصادفت بالحارة التي فيها مثواه، وبجانب داره التي بها مأواه، فتية منهم – يعنى الفرنسيين – برزن كالشموس، وهن يتمايلن تمايل العروس، بوجوه سدل الحسن عليها جلبابه، وقد صير رماح القدود أعلاماً حين أرخى عليها ذؤابه. فهي راية تتبعها من العشاق أجناد، وتميل معها حيث مالت مع الهوى في كل واد. فتطلعت عليهن تطلع الهائم إلى الورود، ووقفت أنظر إلى حسن تثني هاتيك القدود. ففطن مني إلى ما رمته، وعرفن المعنى الذي قصدته. فمال الجميع إلي، وابتدأن بالتحية علي. وأراني فتى منهم كتاباً، وجدد معي كلاماً وخطاباً. فإذا عربيته خالصة من اللكنة، وألفاظه معراة من وصمه الهجنة، وأخذ يعرف ببعض كتب للأفاضل الأكابر، وذكر ما تحويه يده من الكتب والدفاتر. وشرع في التعداد والتعريف، حتى ذكر تذكرة الطوسي والشفاء معبراً عنه بالشفاء

الشريف. فخالطني من ذلك العجب، وزيحتني إليه نشوة الأدب، وزاد إعجابي به، أنى حين قلت له إني ضيف بجاركم ألم، أنشدني على الفور: "أمن تذكر جيران بذي سلم" وأخبرني أنه نقلها من العربية إلى لغته، وهي من جملة ما استقر بمحفظته. ثم لما أخذ الحديث مني ما أخذ، وغلب شيطان المحبة علي واستحوذ، عولت على الانصراف، وقد خالط تعجبي منه الشغاف.

سألني في البكور إلى داره لأرى ما اجتمع عنده من كتبه وأسفاره، فذهبت للمكان الذي أعددته للمبيت، وعلمت أني بحسنه دهيت، فتحركت مني صبوة تقادم عهدها، وتقوت عندي نشوة أدب كان قد ضعف أودها. وطفقت طول ليلي سهران، وأنا برؤية الصباح كالولهان، وحملني عدم الصبر والثبات على أن أنظم فيه هذه الأبيات:

مـن الفرنسـيس ظـبي سـحر مقلتـه	عنـد المحـب لـه في القلـب تأنـيس
قـد لاح في حلـل سـود فخلـت سـنا	صـبح عليـه مـن الأسـتار حنـديس
روض مـن الحسـن لا تـدنو إليـه يـد	ومطلـب بظبـا الألحـاظ محـروس
مهفهـف القـد قـد أرخـى ذوائبـه	كأنـه غصـن في الـروض مغـروس
رأى المحبـة مـن عيـني فخـاطبني	بـدر لفـظ بـه لطـف وتأنـيس
تجـانس الحسـن في مـرآه حـين غـدا	بـين الكـلام وبـين الثغـر تجنـيس

وصـــاد عقلـــي بلفتـــات فـــوا عجبـــا حتى على العقل قد تسطو الفرنسيس

ثم لما سطع صارم الصبح، وتقلص ذيل الليل جنحاً بعد جنح، أسفرت الأماني عن مرآه، وتبسم وجه الزمان لي بلقاه. فاجتمعت معه في عصر ذلك اليوم، وهو مع فتية من هؤلاء القوم، وكل يعانى غوامض المعارف ويقتفيها، ويجيل ذهنه في تحصيل دقائق الأدب ويعتنيها.

فلما استقر بي الجلوس، أخذن يدرن من المنادمة على سمعي حمياً الكؤوس. وأراني من الكتب الصغير والكبير، والنكير عندي والشهير، وكلها في العلوم الرياضية والأدبية. وأطلعوني على آلات فلكية وهندسية. وتحادثن معي في مسائل من تلك العلوم. وكتبن عني بعض هاتيك الفهوم. وسألنني عن حل بعض أبيات البردة، وهي بأيديهن مكتوبة بالعربي في نسخ عدة. ثم أرينني من أبيات الشعر نتفا، وسألنني عما دق منها واختفى. وأخبرني بعضهم أن ببلادهم ديوان المعلقات السبع، وأن عندهم من دواوين الشعر بلغتهم ما يطرب السمع. وكانوا كلما سألوني عن تفسير كلمة لغوية راجعوها في سفر نفيس ألف في اللغة على طريقة الجمهرة باللفظ العربي وترجم بالفرنسيس. وكتبت لهم ببعض المجاميع بعض أبيات، وفسرت لهم فيها بعض كلمات. فمن ذلك بيتان كنت نظمتهما سابقاً، زمن أن كنت في أحاسن الملاح شائقاً. وهما:

خـذ لي أمـاناً مـن لواحظـه الـتي مـلأت فـؤادي أسـهما ونبـالاً

سـفكت دمـى وهـو الحـرام إراقـه فبـأي ذنـب صـيرته حـلالا

ثم عززتهما بقصيدة بها البديهة سمحت، وعلى بعض لغتهم اشتملت، وهي مما اقترحوه علي، لإرادة اختبار ما لدي، وهي:

مـــن الفرنســـيس غصــــن بان	قد لاح بالحسن في جنوس[٢٥]
لـــــــه محيـــــــا كبــــــــدر تم	مـن تحـت ليـل مـن اللبـوس
أراني الــــــــدر في ابتســــــــام	تجـري بـــه خمـرة الكــؤوس
ألحاظـــــه الســــود فـــاعلات	بمهجـتي فعــل خنــدريس[٢٦]
يا قلـــب صـــبراً علـــى هـــواه	فالحـــب فيـــه رداً للنفـــوس
الوصــــل منــــه غـــدا محــــالا	إذ لـيس يرثـى إلى رسـيس[٢٧]
أقـــول وصــــلا يقـــول نونـــو	أقـول هجـراً يقـول سـي سـي

فأخذهم من ذلك الطرب، وتعجبوا مني غاية العجب، وطفقوا في بث المديح في، والإفراط في الثناء علي، وحثوني على الملازمة عندهم، وأروني أن هذا طلبتهم وقصدهم، فسوفت في الإجابة، وضمرت على عدم

(٢٥) جمع جنس.

(٢٦) مهجتي: نفسي. الخندريس: الخمر.

(٢٧) الرسيس: المصاب بالحمى.

الإنابة، علماً مني بأن هذا الأمر تفوق على منه سهام الملام، وترمقني بالعدواة والاحتقار لأجله كافة الأنام. فرجعت لرشدي أقتفيه، واستغفرت الله مما كنت فيه.

***

وللخشاب شعر كثير نظمه متغزلاً بالغلام الفرنسي (ريج) ولما مات الخشاب سنة ١٨١٥ تولى صديقه العطار جمع ديوانه. وتجد في تاريخ الجبرتي ترجمة وافية له.

وفي أيام الاحتلال الفرنسي، احتفل بالمولد النبوي في الأزبكية على غير المعتاد. وكان هذا الاحتفال بناء على طلب نابليون. وأقيم الاحتفال في بيت السيد خليل البكري ونصب الزينات وأوقدت المصابيح الكثيرة. وأرسل نابليون فرقة موسيقاه الخصوصية إلى بيت البكري، فظلت تطرب الحاضرين ليل نهار. وفي الليل أطلقوا الصواريخ والمدافع.

***

وذات يوم طبع الفرنسيون إعلانات وألصقوها على الجدران، مضمونها أنهم سيطيرون مركباً ببركة الأزبكية بحيلة فرنساوية، فلما كان عصر ذلك اليوم، اجتمع عدد عظيم من المصريين والأجانب ليروا تلك العجيبة. فإذا قماش ملون أحمر وأبيض وأزرق على شكل كيس كبير بفوهته دائرة من النحاس تشبه دائرة الغربال. وقد علقوا في وسط هذه

الدائرة مصباحاً له فتيل ضخم. وربطوا هذا القماش ببكر وحبال، أطرافها بأيدي أناس قائمين على أسطح البيوت القريبة منها. ثم أوقدوا تلك الفتيلة فصعد دخانها إلى داخل الكيس فامتلأ وانتفخ وصار كالكرة. وأخذت هذه الكرة ترتفع شيئاً فشيئاً. وكان الناس يساعدونها على أن ترتفع بواسطة الحبال التي في أيديهم. فلما حلقت في الجو، قطعوا الحبال فطارت في الجو مع الهواء. وظلت محلقة مدة وجيزة، ثم سقطت وتناثرت منها أوراق كثيرة. فلما حدث ذلك، ظهر على الفرنسيين كما يذكر الجبرتي الخجل والكسوف، لأنهم كانوا قد أشاعوا بأنهم سيصنعون مركباً تسير في الهواء، ويجلس فيها أنفار من الناس يسافرون فيها إلى البلاد البعيدة لكشف الأخبار وإرسال المراسلات. قال الجبرتي (ظهر أنها مثل الطيارة التي يعملها الفراشون في المواسم والأفراح).

***

وفي سنة ١٧٩٩ نشبت ثورة في القاهرة ضد الفرنسيين، وتعرض الجنود الفرنسيون في أنحاء العاصمة لاعتداء الوطنيين، وحينئذ رأت القيادة الفرنسية ضرورة نقل الإدارات الفرنسية المختلفة والمخازن والجنود إلى وجه البركة، فصدر أمر بإخلاء هذه الجهة من سكانها، وسرعان ما شغلت المساكن بالجنود والضباط والموظفين المدنيين.

ولما غادر نابليون مصر، خلفه كليبر، وفي حديقة قصر الألفي، كان كليبر ذات يوم يروح ويجئ وبصحبته أحد المهندسين، فدخل عليه سليمان

الحلبي واتجه إليه، فأشار عليه كليبر بالرجوع، وقال له: (مفيش) وكررها. فلم يرجع وأوهمه أن له حاجة وهو مضطر في قضائها. فمد إليه كلير يده، فقبض عليه سليمان وضربه بخنجر كان قد أعده في يده اليمنى أربع ضربات متوالية، فشق بطنه وسقط على الأرض صارخاً. فصاح رفيقه المهندس، فذهب إليه سليمان وطعنه عدة طعنات، وهرب. فصرخ المهندس بأعلى صوته. فجاء العساكر مسرعين، ولما عاينوا ما حدث، انطلقوا يبحثون عن القاتل. وأخيراً وجدوه منزوياً في بستان مجاور لقصر الألفي. وعثروا على الخنجر ملقى على أرض الحديقة ملوثاً بالدماء.

***

وفي عهد كليبر، سنة ١٧٩٩ نشبت ثورة كبرى، وتحصن المصريون بقيادة إسماعيل كاشف بجوار جامع الكخيا. كما تحصن حسن بك الجداوي بجنوده في ناحية الرويعي. وهجم العامة على منزل السيد خليل البكري بشارع عبد الحق السنباطي، لاتهامه بأنه كان يوالي الفرنسيين ويمدهم بالأطعمة. فهجم عليه عدد كبير من جنود المماليك ومعهم جمع عظيم من عامة الشعب، ونهبوا داره وسحبوه مع أولاده بعد أن ضربوه ضرباً مؤلماً وعروه من ثيابه، وساقوه إلى الجمالية وسلموه إلى عثمان كتخدا.

وزحف المصريون من ناحية جامع الكخيا بقيادة إسماعيل كاشف الذي تحصن ببيت أحمد أغا شويكار. وكان الفرنسيون قد دسوا به لغما، فاشتعل ذلك اللغم وانفجر، ورفع ما فوقه من الأبنية والناس وطاروا في

الهواء واحترقوا عن آخرهم وفيهم إسماعيل كاشف. وتهدم جميع ما هنالك من الدور والمباني العظيمة، والقصور المطلة على البركة واحترقت جميع البيوت الواقعة في ناحية الفوالة وكذلك جميع البيوت الواقعة بين جامع الكخيا وقنطرة الدكة.

واحترقت ناحية الرويعي كلها إلى حارة النصارى، وصارت كلها تلالا وخرائب. قال الجبرتي (كأنها لم تكن مغنى صبابات ولا موطن أنس ونزعات، لقد جنت عليها أيدي الزمان وطوارق الحدثان، حتى تبدلت محاسنها، وأقفرت مساكنها. وهكذا عقبى سوء ما عملوا، فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا).

وحولوا جامع الرويعي إلى خمارة، وانهدم جامع الكخيا واتخذوا جامع أزبك (أولاد عنان) سوقا تجارية. وأزالوا جميع الأفاريز من شوارع وجه البركة حتى تتسع الشوارع وتصلح لمرور العربات الكبيرة.

وقد نظم أحد الزجالين المصريين ملحمة طويلة سجل فيها وقائع الحملة الفرنسية، فمن ذلك قوله:

حـــازوا بيـــوت الغـــز ســـكنوا فيهـــا	وباشـــــهم خـــيم ببيـــت الألفـــي
عســــــكرهم بالأزبكيــــــة صــــــاروا	على البيوت ما عاد لهم بيت يكفي
وزيـــرهم خــــيم ببيـــت البكـــري	والكمســـاري حـــل ببيـــت الجلفـــي

قـايم مقـام دوبي سـكن بيـت هـانم ‏ ‏ ‏ ‏ والجنـد في الأسـواق تـراهم خطـار

حـتى الـديار تشـقى فكـن مستبصـر ‏ ‏ ‏ ‏ هـذي مـواعظ جـت لأهـل الأبصـار

ومنها ما فيه إشارة إلى ثورة سنة ١٧٩٨.

نادى منـادي في البلـد بالنهضـة ‏ ‏ ‏ ‏ قالوا الجهاد مفروض على دي الأمة

راح الخبر في الحال إلى بيت دوبي ‏ ‏ ‏ ‏ قايم مقام فاغتاظ وقام في همه

هجـم عليـه زمـزوم ودشـوا راسـه ‏ ‏ ‏ ‏ فمات وبعده اشتد كرب الزحمة

وجـات عسـاكر مسـرعة لا تحصـر ‏ ‏ ‏ ‏ وقاتلوا الإسلام وباعوا الأعمار

يـومين قتـال والحـرب زايـد قـدره ‏ ‏ ‏ ‏ مـا خلـتهم إلا عفاريـت عمـار

***

وقد شكل الفرنسيون أول قدومهم إلى مصر ديواناً مكوناً من بعض الأعيان ورجال الدين للنظر فيما يعرض عليه من المشاكل. وكان مقر هذا الديوان بشارع البواكي (الآن بالقرب من ميدان الخازندار)

***

وعقب إخماد هذه الثورة، شدد الجنرال برتملى على الحركة الوطنية واضطهدها اضطهاداً عظيماً. وقد عرف عند العامة باسم (فرط الرمان) وفي المظاهرات كان الناس يهتفون بقولهم (اللهم انصر دين السلطان واهلك فرط الرمان). وكان برتملى – وأصله رومي – مقيماً في مصر قبل الحملة الفرنسية. وقد وصفه الجبرتي بقوله إنه من أسافل الروم، واستخدمه الألفي قائداً لمدفعيته. وفي أوقات فراغه، كان يشتغل ببيع قوارير الزجاج الفارغة في حانوت صغير بالموسكي وقد عينه الفرنسيون وكيلاً لمحافظ القاهرة. وإليه يشير الزجال المتقدم في قوله:

من بعد هذا الأمر دار الوالي	مع الأغا والكلب فرط الرمان
حاشوا خلايق في حبوس القلعة	قد أسجنوهم والمقدر كان
من كان فرغ عمره قتل في ليله	ومن خلص، من عزته قد هان
وتمموا النكتة بقتل الستة	اللي تقدم ذكرهم في الأدوار
يا عين عليهم بالمدامع جودي	واجعلي دموعك عليهم غزار

***

أما السيد خليل البكري الذي هجم العامة على منزله وكادوا يقتلونه، فقد كان بحق منحازاً إلى جانب الفرنسيين، ولكنه استطاع أن يؤدي خدمات كبرى إلى كثير من العائلات المصرية التي فقدت عائلها في

الحرب، وقد كانت نقابة الأشراف قبل الغزو، في يد السيد عمر مكرم، الذي هرب من وجه الفرنسيين إلى الشام. قال الجبرتي في ترجمة السيد خليل: (وصار له قبول عند الفرنساوية وجعلوه من أعاظم رؤساء الديوان الذي كانوا نظموه لإجراء الأحكام بين المسلمين. فكان وافر الحرمة، مسموع الكلمة، مقبول الشفاعة عندهم. فازدحم بيته بالدعاوى والشكاوى وآوى كثيراً من المشردين، وأمن عدداً عظيماً من الخائفين).

وكان للشيخ خليل فتاة في ريعان شبابها، على جانب عظيم من الجمال، فاختلطت بالفرنسيين وكانت تقضي مع بعضهم أياماً وليالي في لهو غير برئ. ولما اشتهر ذلك عنها، وساءت سمعتها وأصبحت مضغة في الأفواه، عزم والدها على قتلها ولم يتردد في تنفيذ عزمه.

***

ومن عظماء المصريين الذين سكنوا في وجه البركة أيام الاحتلال الفرنسي، الشيخ مُحَّد المهدي، شيخ الجامع الأزهر في عصره. كان قبطياً واعتنق الإسلام وهو صبي وتسمى باسم (مُحَّد المهدي) بدأ حياته الدراسية بحفظ القرآن الكريم، ثم التحق بالأزهر وتلقى على شيوخ عصره علوم النحو واللغة والدين. وسرعان ما تبحر في هذه العلوم وتصدر للتدريس، واشتهر بحسن بيانه وفصاحة لسانه وحلاوة عباراته. وأقبلت عليه الدنيا واتصل بالحكام والأمراء والأعيان، ونال منهم حظاً وافراً بحسن معاشرته، وعذب حديثه. وحينما تفشى الطاعون بمصر سنة ١٧٩٠م مات خلق

كثير وتركوا أموالاً وعقاراً وضياعاً لا حصر لها، دون أن يكون لهم من يرثهم، فخصه الوالي بنصيب من العقار والضياع. والتزم بمساحات واسعة من الأراضي الزراعية وهكذا أصبح من كبار الأغنياء فابتنى لنفسه قصراً كبيراً في وجه البركة، بشارع المهدي حالياً.

ولما احتل الفرنسيون مصر، وخاف الناس وغادروا العاصمة، بقي المترجم واتصل بهم وانضم إليهم وسايرهم ولاطفهم في أغراضهم وأحبوه وأكرموه، وقبلوا شفاعته ووثقوا بقوله. فكان هو المشار إليه في دولتهم مدة إقامتهم بمصر، والواسطة العظمى بينهم وبين الناس في قضاياهم وحوائجهم. وأوراقه وأوامره نافذة عند ولاة أعمالهم، حتى لقب عندهم وعند الناس بكاتم السر.

ولما رتبوا الديوان الذي رتبوه لإجراء الأحكام بين المسلمين في قضاياهم ودعاواهم، كان هو المشار إليه فيه، والموظفون في الديوان تحت أمره. وإذا ركب أو مشى يمشون حوله وأمامه وبأيديهم العصي يوسعون له الطريق. وراج أمره في أيامهم جداً وزاد إيراده وتضخمت ثروته. وضم إلى أملاكه جملة بلاد وقرى وأقامه الفرنسيون وكيلاً عنهم في أشياء كثيرة، وبلاد وقرى يجبى إليه خراجها، ويقوم هو بتسليم الحكومة ما يخصها، دون أن يراجعه مراجع، أو يحاسبه محاسب.

ولقد أمن الخائفين والهاربين من وجه الفرنسيين، وحمى دورهم ونساءهم، ودافع عنهم في أثناء غيابهم. وأعان بعض الأسر التي أخنى

عليها الدهر. قال الجبرتي: (وبالجملة فقد كان بوجوده وتصدره في تلك الأيام النفع العام. وسد بعقله ثقوباً واسعة وخروقاً، وداوى برأيه جروحاً وفتوقاً، لاسيما أيام الخصومات والتنازع، وما يكدر طباع الفرنساوية من مخارق الرعية. فيتلافاه بمراهم كلماته، ويسكن حدتهم بملاطفاته).

وبعد أن جلا الفرنسيون وعادت مصر إلى حكم العثمانيين، كانت له الصدارة والتقدم، وظلت كلمته مسموعة، وشفاعته محترمة ومقبولة، واحتفظ بمكانته حتى في عصر مُحَّد علي، ومات سنة ١٨١٥. وفي خلال الثورة ضد الفرنسيين سنة ١٧٩٩، تساقطت القنابل على قصره الذي بوجه البركة فتهدم واحترق.

تاريخ الأقباط في حي الأزبكية

في وجه البركة نجد الكنيسة المرقسية الكبرى مقر بطريرك الأقباط الأرثوذكس، وقد كان مقر البطريركية في العصر الروماني في مدينة الإسكندرية، وذلك لأن القديس مرقس نزل بها ونشر فيها الدعوة. ولأن الإسكندرية كانت عاصمة البلاد في ذلك الوقت، ولهذا السبب يحمل بطريرك الأقباط لقب (بابا الإسكندرية والمدن الخمسة الغربية).

ويرجع قيام المذهب الأرثوذكسي إلى القرن الخامس الميلادي، ففي هذا القرن نشب خلاف عظيم بين الأساقفة في العالم المسيحي حول طبيعة المسيح. وعقدت مجامع كثيرة للتوفيق بين الآراء المختلفة. ولكن المصريين بزعامة ديسقورس تمسكوا بوجهة نظرهم التي تنحصر في القول بطبيعة واحدة للمسيح، وهي أنه إله. في حين أن أساقفة روما وعلى رأسهم (لاون) أعلنوا رأيهم الذي ينص على أن للمسيح طبيعتين: طبيعة إنسانية وأخرى إلهية، أي أنهم قالوا بالإثنينية بعد الاتحاد. وفي أحد المجامع المنعقدة لبحث هذا الموضوع، تمكن المصريون من الانتصار على خصومهم. ولكن (لاون) أسقف روما سعى سعياً متواصلاً حتى انعقد مجمع جديد قرر فصل ديسقورس من سلك الكهنوت واعتباره خارجاً على الدين، ومن هذا التاريخ (منتصف القرن الخامس) انفصلت الكنيسة المصرية وأصبحت وحدة قائمة بذاتها. وقد ظلت كنيسة الإسكندرية مقراً للبطريركية حتى فتح

العرب مصر؛ ففي عهد عمر بن عبد العزيز، طلب من البطريرك أن يجعل مقره في القاهرة، وذلك ليسهل الاتصال بينه وبين الحكومة فيما يتعلق بشئون الطائفة التي يرعاها. فلم يمانع البطرك في ذلك، وانتقل إلى مصر القديمة وأقام في الكنيسة المعلقة. وذلك لأن مصر القديمة كانت العاصمة في ذلك الوقت.

وبعد انتقال العاصمة إلى القاهرة المعزية، وقيام حركة العمران في تلك الجهة، تحول البطريرك إلى كنيسة العذراء بحارة الروم. ولكن البطاركة لم يقيموا فيها بصفة دائمة، بل كانوا أحياناً يذهبون إلى الكنيسة المعلقة. إلا أن غالب إقامتهم كان بحارة الروم. وانتخاب البطاركة كان يجرى في كنيسة مصر القديمة، في حين أن رسامتهم كانت تتم في كنيسة الملائكة بالإسكندرية.

وحوالي سنة ١٧٩٠م اشترى المعلم إبراهيم الجوهري قطعة أرض بوجه البركة ليبنيها كنيسة. وحدث أن جاءت إلى القاهرة إحدى أميرات البيت المالك العثماني في طريقها إلى الحجاز. فقابلها المعلم إبراهيم وقدم لها الهدايا النفيسة، والتمس منها أن تساعده في الحصول على فرمان لإنشاء كنيسة الأزبكية. وقد حققت أمله، وجاءه الفرمان بذلك، ولكن المنية عاجلته قبل أن يشرع في البناء. وقد ترك إبراهيم ثروة طائلة فقام أخوه جرجس ببناء الكنيسة، واشترى مساحة من الأرض بجوارها ووقفها عليها.

وحوالي سنة ١٧٩٤ حدث حريق بكنيسة حارة الروم فدمرها تدميراً تاماً. فانتقل البطريرك مرقس الثامن إلى كنيسة الأزبكية، وكرسها على اسم مارمرقس. وتوفي مرقس الثامن سنة ١٨١٠م. وهو أول من دفن من البابوات بكنيسة الأزبكية. وفي هذه السنة انتخب بطرس السابع، فكان أول بطريرك يجرى انتخابه في كنيسة وجه البركة.

وفي عهد الأنبا كيرلس الرابع (١٨٥٤) شيدت المدرسة القبطية، وهدمت الكنيسة وأعيد بناؤها من جديد. وقد ذكرنا أن المعلم جرجس الجوهري اشترى مساحة من الأرض ووقفها على الكنيسة. وهي ما زالت في حوزتها حتى الآن. وقد شيدت فوقها بيوت، بعضها حديث ولكن معظمها قديم متهدم آيل للسقوط. وكثر سكنى الأقباط في تلك الجهة منذ ذلك التاريخ.

وفي أيام الاحتلال الفرنسي انضم المعلم يعقوب إلى الفرنسيين وأنشأ فرقة عسكرية من شباب الأقباط، وقد منحه الفرنسيون رتبة جنرال. وشيد قلعة منيعة في شارع الجامع الأحمر بوجه البركة، وجمع فيها الأقباط وتولى حمايتهم والدفاع عنهم ضد هجوم الجيش العثماني. وظلت القلعة تقاوم حتى عقد الصلح وجلا الفرنسيون عن البلاد وسافر معهم يعقوب وعاش في فرنسا حتى مات ودفن هناك.. قال أحد زجالي هذا العصر:

وحصنوا الأسوار وأبو يعقوب بنى قلاع في حارته غير السور

وكم مساجد في البنايا أدخل وكم عدد أملاك وشدد في الجور

يا حسـرتى فينـا تحكـم يعقـوب وصـادر الأعيـان وجمـع التجـار

فـرده مـن القاضـي إلى مـن دونـه حـتى الجعيـدي عمتـه والحمـار

عيد الضحية ما خطبلوش خطب من شدة الهول حدش فيه فكار

وعسـكر الأقبـاط بقـى لوصـوله وبهــدلوا المــأمور مــع الأمــار

ألخ...

***

والآن نترجم للمعلم جرجس الجوهري عظيم القبط في عصره، والمتوفى سنة ١٨١١.كان أخوه إبراهيم الجوهري رئيس كتاب الأمير إبراهيم بك، وقد تمتع إبراهيم بنفوذ عظيم عند سيده، وبذلك استطاع أن يقدم إلى أبناء طائفته خدمات كثيرة، وأن يعين فقراءهم ويحميهم من بطش الحكام. وهو الذي فكر في بناء كنيسة الأزبكية واشترى الأرض اللازمة لذلك، وحصل على تصريح ببنائها كما تقدم ذكره، ولما مات خلفه في وظيفته أخوه جرجس فبنى لنفسه عدة قصور بوجه البركة، وكان تحت يده عدد كبير من الكتبة ومحصلي الضرائب، وبيده حل الأمور وربطها في جميع البلاد، نافذ الكلمة، وافر الحرمة. وجمع ثروة طائلة. وفي أيام الاحتلال الفرنسي عين في وظيفة تشبه وظيفة وزير المالية حالياً فكان المتصرف

المطلق فيما يتعلق بالإيرادات والمصروفات، وظل محتفظاً بنفوذه بعد جلاء الفرنسيين وعودة البلاد للحكم العثماني. وكان الولاة يحترمونه ويجلونه ويدعونه جرجس أفندي، ويجلسونه بجانبهم، ويستشيرونه في أمور الحكم.

وكان جرجس عظيم النفس، كريماً جواداً، يوزع الهدايا على جميع الأعيان والكبراء بمناسبة شهر رمضان كالشمع والسكر، والأرز والبن والملابس والياميش والعسل وغير ذلك. ولهذا أحبه الناس وارتاحوا إليه وبخاصة وأنه كان يدفع المظالم عن الشعب، وينصح باستخدام الرأفة والرحمة. واتخذ حرساً خاصاً لحراسة قصره ليل نهار. ولم يزل جرجس متمتعاً بثقة ولى الأمر، حتى ظهر المعلم غالي واتصل بمحمد علي، وكان غالي يحقد على جرجس ويريد أن يغتصب منه مركزه، ويستولي على وظيفته.

وقد أدرك غالي مقدار حاجة مُحَمَّد علي إلى المال في أوائل حكمه. فدبر له مختلف الحيل لابتزاز الأموال من الشعب. ولم يرق هذا في عين جرجس وأبى ضميره الحي أن يساير مُحَمَّد علي في خطته الظالمة، بل إنه استنكر عمل الوالي، وأسدى إليه النصح بأن يترفق بالرعية ولا يرهق الناس بالضرائب. ولكن الوالي سد أذنيه لأن المعلم غالى استولى على مشاعره، وسهل له كل أمر عسير. وقد حدث أن مُحَمَّد علي صادر أوقاف المساجد، فذهب المشايخ محتجين على ذلك، فتصدى لهم المعلم غالي قائلاً: "يا أسيادنا هذا أمر مفروغ منه بأمر أفندينا، وواجب عليكم مساعدته خصوصاً في خلاص كعبتكم ونبيكم". وكان مُحَمَّد علي في ذلك الوقت مشغولاً بقتال الوهابيين.

وخلاصة القول إن المعلم غالي استطاع أن يقضي على جرجس الجوهري قضاءً تاماً، فاضطر هذا إلى أن يهرب إلى الصعيد، وقيل إن مُحَمَّد علي نفاه إلى الصعيد، وقبل سفره جمع الحجج الخاصة بأملاكه بوجه البركة وسلمها إلى البطرخانة لتنفق من ريعها على أهل بيته، فوضعت يدها عليها، وبقيت في حوزتها حتى الآن. ومات جرجس سنة ١٨١١ ودفن بمصر العتيقة، ولا يزال قبره هناك.

والحديث عن الأقباط في هذا الحي يستغرق حيزاً كبيراً، لأنه يشمل تاريخ الكنيسة المرقسية وبطاركتها، وما قام فيها من نهضة وإصلاح، ونزاع وتنافس. ولما كان هذا الكتاب لا يتسع لذلك، فقد رأينا أن نكتفي بالحديث عن أبي الإصلاح كما لقبه أبناء طائفته، وأعني به الأنبا كيرلس الرابع

ولد الأنبا كيرلس الرابع (واسمه داود) سنة ١٨٠٦ في الصوامعة (إحدى قرى مديرية جرجا) وتلقى في قريته مبادئ القراءة والكتابة، ثم اشتغل مع والده بالزراعة، واختلط بعرب جرجا وتعلم منهم ركوب الخيل، وصار يقطع مسافات طويلة في الصحراء، فعرف طرقها ومسالكها.

ولما بلغ الثانية والعشرين من عمره، شد رحاله إلى دير القديس أنطونيوس بناحية جرجا للترهب والانقطاع للعبادة، فوصل إليه بعد مسيرة ثلاثة أيام، وترهب على يد إثناسيوس القلوصي رئيس ذلك الدير. ولم

يلبث هناك مدة حتى اشتهر بين رفقائه الرهبان بالذكاء والاستقامة، ودماثة الأخلاق والهمة والنشاط.

ولما اختير رئيساً لدير القديس أنطونيوس، أصدر منشوراً أوصى فيه الرهبان بعدم مبارحة الدير إلا بعد الحصول على إذن منه، وذلك لأنهم كانوا يغادرون الدير بصفة مستمرة، ويتغيبون عنه مدداً طويلة. ومما أثر عنه قوله: (إن من يختار ثوب الرهبنة فقد مات عن الدنيا ودفن في الدير فلا يخرج الميت من قبره. والرئيس الذي يأذن للراهب بالخروج من ديره، قد أخرج ميتاً من قبره).

ثم اختير رئيساً لدير بوش (في مديرية بني سويف) فظهر شغفه بالثقافة العامة، واهتمامه برفع مستوى أبناء طائفته من الناحية العلمية؛ فأنشأ مكتبة بهذا الدير، وزودها بعدد عظيم من الكتب الدينية والتاريخية. وكان يجمع الرهبان إليه في ساعات الفراغ، ويستحثهم على المطالعة والدرس والبحث في الموضوعات الدينية والتاريخية.

وأنشأ مدرسة لتعليم أبناء بوش الأقباط اللغة العربية بفروعها، واللغة القبطية واعتنى هو بدراسة النحو والصرف، وكان شخصية محبوبة في مديرية بني سويف كلها.

ولما مات الأنبا بطرس السابع سنة ١٨٥٢ رشح بعض رجال الإكليروس لأنبا كيرلس (الراهب داود) لكرسي البطريركية. ولكن بعضهم الآخر عارض في ذلك معارضة شديدة. وظل منصب البطريرك شاغراً لمدة

سنة. على أن رجال الإكليروس لم يمانعوا في اختياره مطراناً لمدينة القاهرة، وكان ذلك سنة ١٨٥٣. ومن ذلك التاريخ، أخذ في مباشرة أعماله، وإدارة البطركخانة، وأظهر من الأهلية والهمة والغيرة ما أطلق الألسنة بالثناء عليه. وأول أعماله التي قام بها بعد رسمه مطراناً، بناء مدرسة للأقباط بجوار البطركخانة سنة ١٨٥٣ وهي أول مدرسة أقيمت لهذه الطائفة بمدينة القاهرة.

وكان بناء المدرسة ونجاحها عاملاً قوياً في إجماع الأقباط على محبته واحترامه فلا عجب أن انتخبوه بطريركا سنة ١٨٥٤ بحضور الأساقفة، ما عدا أسقفي أخميم وأبوتيج، فإنهما خرجا على هذا الإجماع وانفردا بمعارضتها في اختيار المترجم لمنصب البطريرك، فلما تم انتخابه، شرع في تنفيذ برنامجه الإصلاحي. فعين بالمدرسة بعض مهرة المدرسين من أجانب ومصريين، وكان التعلم فيها بالمجان، ويصرف للتلاميذ الكتب والكراسات والأدوات المدرسية دون مقابل. ولشدة عنايته بها، اتخذ له مكتباً فيها، فإذا أتى إليه زائر أجنبي أو وطني وله معرفة باللغات والعلوم وطرق التدريس، كلفه بالمرور على الفصول والنظر في أحوال المدرسين والتلاميذ، وتدوين ملاحظاته حتى يمكن أن ينتفع بها في النهوض بالمدرسة، وتحسين طرق التدريس بها. وكثيراً ما كان يطيل الإقامة في أحد الفصول، مصغياً لما يلقيه الأستاذ على الطلبة، ثم يقول مخاطباً التلاميذ قبل خروجه: (قد استفدت معكم اليوم فائدة لم أكن أعرفها قبلاً)

وكان أحياناً يلقي على التلاميذ محاضرات أدبية وتاريخية مما يناسب سنهم وإدراكهم، وقد جعل تعليم اللغة القبطية إجبارياً، وكان يشرف على تعليمها بنفسه. ثم أنشأ مدرسة أخرى وكنيسة بحارة السقائين، وعهد إلى أحد قسس كنيسة الأزبكية – وهو القمص تكلا – بأن ينتخب من بين تلاميذ المدرسة الشمامسة عدداً معلوماً من ذوى الأصوات الحسنة، وناط به تعليمهم التراتيل الكنائسية بطريقة مضبوطة، وجعل لهم ملابس مخصوصة على طراز جديد لطيف، يلبسونها في أثناء وجودهم في الكنيسة في أيام الآحاد والأعياد والمواسم. فنتج من هذا التحسين الظاهري فائدتان: إحداهما إظهار مزايا المدارس وترغيب الأهالي في إرسال أبنائهم إليها، والثانية مواظبتهم على الحضور إلى الكنيسة وهم منشرحو الصدر من سماع التراتيل. وقد كان اختيار القمص تكلا لهذه المهمة موفقاً، وذلك لأن هذا القمص كان يتقن فن الموسيقى والألحان الكنائسية إتقاناً مدهشاً، وامتاز بصوت في منتهى الجمال والإبداع.

وكانت اللغات التي تدرس بالمدرسة غير اللغة العربية هي: اللغة القبطية القديمة، والتركية، والطليانية، والإنجليزية، والفرنسية. وتلاميذها من جميع الطوائف وكلهم معفون من دفع نفقات التعلم وثمن الكتب والأدوات.

وفي عهد الخديو إسماعيل أنشئت مصلحة السكك الحديدية، وأسندت إدارتها إلى أحد الأقباط، فذهب إلى المدرسة ذات يوم، وأخذ

معظم تلاميذها وعينهم في المصلحة ثم أنشئت مصلحة البريد فتعين بها عدد كبير منهم، كما تعين من خريجيها عدد وافر في ديوان المالية.

وعرف الخديو إسماعيل فضل المدرسة القبطية في نشر العلم، وكان الأنبا كيرلس قد مات وخلفه الأنبا ديمتريوس، فدعاه الخديو لمقابلته، ورحب به، ووهب المدرسة ألفاً وخمسمائة فدانا من أجود الأطيان، لتكون وقفا ينفق من ريعها على التلاميذ، وسلم للبطريرك حجة بذلك. كما قرر لها إعانة سنوية قدرها مائتا جنيها. ولكن هذه الإعانة قطعت حينما اضطربت الأحوال المالية في أواخر عهد إسماعيل.

***

وقد وجه الأنبا كيرلس الرابع همه إلى تحسين إدارة البطركخانة؛ فأنشأ ديواناً وعين له المستخدمين الأكفاء، وقسم الإدارة إلى قسمين: قسم يختص بالأوقاف والمكاتبات الرسمية وغيرها، وقسم يختص بالأعمال الدينية.

ورأى أن أعمال الأوقاف جارية بطريقة غير منتظمة، وكان بعضها ضائعاً ولم يعرف الضائع منها والموجود؛ فأمر بإنشاء سجل لحصر جميع الأوقاف به، من واقع الحجج، وعين لهذا العمل عدداً من الموظفين، اشتغلوا به زمناً حتى أتموه على الوجه الأكمل.

وأنشأ مطبعة، ولما حضرت أدواتها من أوربا أمر باستقبالها في احتفال رسمي يسير فيه الشمامسة بالملابس الرسمية المختصة بالخدمة الكنائسية، يرتلون التراتيل الروحية. وكان هذا الاحتفال حديثاً للناس مدة من الزمن لغرابته.

وفي عام ١٨٥٦ بعثه سعيد باشا إلى الحبشة في مهمة سياسية ولما رجع سنة ١٨٥٨ تهافت أبناء طائفته على استقباله وتحيته، وازدحمت شوارع الأزبكية التي مر بها موكبه، وأعدوا له زينة فاخرة في المدرسة والبطركخانة.

وهدم بناء الكنيسة والبطركخانة الذي أقامه المعلم جرجس، وأعاد بناءها واحتفل بذلك احتفالاً عظيماً حضره جميع رؤساء الطوائف وأعيان البلاد ورجال الحكومة، وكان ذلك في أبريل سنة ١٨٥٩.

وحينما مات سنة ١٨٦١ حزن عليه كل من عرفه أو سمع عنه شيئاً، ومن أعماله الطيبة أن القسس كانوا قبل عهد يعيشون على حسنات الطائفة وصدقاتها؛ فرتب لهم الأنبا كيرلس مرتبات شهرية تصرف لهم من البطركخانة. ورغبة في رفع منزلتهم، والنهوض بمستواهم، أصدر منشورا يقضي بأن المرتب لا يصرف إلا لمن يحسن الصلاة باللغة القبطية.

وعند عودته من الحبشة، حدد للقسس موعداً يجتمعون فيه كل يوم سبت ليبحثوا في أمور الدين، وكان يحضر معهم ويناقشهم ويشرح لهم واجباتهم، وكان في نيته أن يعقب ذلك بإنشاء مدرسة إكليركية، ولكنه

مات قبل أن يحقق أمنيته. وفي آخر أيامه فتح مدرسة للبنات، ولكنها لم تصادف نجاحاً وأغلقت.

ويلاحظ المطالع في تاريخ الأقباط ظاهرة تدعو إلى الأسف الشديد، هذه الظاهرة هي الخصومات العنيفة التي تنشب بينهم حول اختيار شخص البطريرك. فقد حدث في مرات كثيرة أن ظل الكرسي البطريركي شاغراً عدة سنوات، وحدث أن قام بطريركان في وقت واحد: أحدهما في الإسكندرية، والآخر في وادي النطرون. وكلنا يذكر المنازعات والمعارك الحامية التي وقعت خلال عهد الأنبا يوساب. وكان يظن أن هذه المعارك ستنقطع بعد وفاة هذا البطريرك، إلا أن الواقع أثبت غير ذلك. فانقسم الأقباط إلى فريقين تفصل بينهما هوة عميقة. وتعذر عليهم أن ينتخبوا خليفة لمرقس الرسول.

ومع أن المفروض أن الرهبان قد تخلوا عن الدنيا، وزهدوا فيها، وخرجوا منها، وانقطعوا لعبادة الله، إلا أنك لا تجد من واقع حياتهم ما يدل على ذلك، فتراهم يطبعون المنشورات، التي يطعن فيها بعضهم في بعض طعناً قبيحاً، ويوجه بعضهم إلى بعض على صفحات الجرائد التهم الفاضحة كالسرقة والاختلاس والتزوير، والتدليس، والكذب والغش والخداع. ولم يحترموا أنبا يوساب في شيخوخته، بل راحوا يشهرون به تشهيراً لا يقر دين ولا يرضاه ضمير، وجرحوه في ذمته وأخلاقه، وحاولوا قتله.

وقامت بجوار البطرخانة بعض الصناعات التي تمت إلى الدين المسيحي بصلة، كصناعة العمائم السود التي يلبسها رجال الدين، ونسج وحياكة الملابس الكهنوتية، وصناعة الصلبان من الخشب المطعم بالصدف، أو من العاج والأبنوس، أو من بعض المعادن كالفضة والذهب. وصناعة الشمع الذي يوقد في الكنائس، والأسرجة، والعصي، والمسابح، والمراوح، والطراحات، وغير ذلك مما لا يزل بعضه قائماً إلى اليوم. واشتغل بعض الأجانب بعمل التماثيل والصور للشهداء والقديسين، وصناعة القناديل والشمعدانات.

وكانت الآداب المسيحية في مبدأ الأمر، قاصرة على نظم الأناشيد والترانيم الدينية، وتأليف العظات الروحية في أسلوب عامي حتى يسهل فهمه على أبناء الطائفة. ولما أنشئت مدرسة الأقباط، أقبل بعض تلاميذها على الاشتغال بالخطابة والكتابة ونظم الشعر. وكانت إدارة المدرسة تشجعهم على ذلك. ومن أشهر أدباء الأقباط بوجه البركة، تادرس وهبي الذي أسندت إليه نظارة المدرسة، وله شعر كثير في مدح الحكام. ومن مفاخر مصر التي نوه بها في شعره، تقدم حركة التعليم في المدارس، وفي الأزهر. قال:

حتى تلألأت المدارس بهجة   بوجوده وغدت له تتشكر

ولكن بأزهرها شموس لطائف أنوارها لألئ المعارف تبهر

وجميل جداً من قبطي كتادرس وهبي أن ينوه بشأن الأزهر وعلمائه.

ومن قوله في رثاء بطرس غالى، وقد اغتيل سنة ١٩١٠:

مـــا رأينـــا كمثلـــه مـــن وزيـــر بلـــغ القطـــر ســـعيه المـــأمولا
أنشـــــأته كنانـــــة الله شـــــهماً ذا يـد في سياسـة الملـك طـولى
نازعتنـــــا فيـــــه الليـــــالي وودت لـو بـه جـادت القـرون الأولى
اصـطفاه العبـاس للملـك ذخـراً فـامتطى غـارب المعـالي ذلـولا
وارتضـــاه إذ لم يجـــد مـــن ســـواه في صـعاب الأمـور قـط بـديلاً

هكذا وقف تادرس وهبي يعدد مآثر الفقيد، وينوه بمناقبه وفضائله، وقد أسهب في ذلك لينفي عن بطرس تهمة الخيانة التي وجهها القاتل إليه، وجعلها سبباً لتبرير جريمته. واستخدم الشاعر ألفاظاً وعبارات ذات إيحاء خاص، مثل قوله: (واصطفاه العباس) وقوله (وارتضاه إذ لم يجد من سواه قط بديلاً) فكيف يكون خائناً من اصطفاه العباس وارتضاه؟ ونسي أو تناسى أن العباس لم يكن حراً في اختيار الوزراء، وإنما كان منفذاً لرغبات المحتلين الذين اقترحوا عليه تعيين بطرس غالي في منصبه.

وقال مخاطباً الورداني:

يا حليـف الشـقاء دنيـا وأخـرى كيـف حللـت قتلـه تحلـيلاً

لســت منــه ولا قلامــة ظفــر فلـــك الله خائنـــاً مـــرذولاً
علـــم الله أن بطـــرس غـــالي كـان فيمـا يلـي قـولا فعـولا
لم يحـاول أمـــراً يضـــر فريقـــاً أو يســوم الـبلاد وقـراً ثقـيلاً

ومنها:

ولنـــــردد تأبينـــــه وكـــــأنا منــه نتلــو التــوراة والإنجــيلا
ولنرتـــل في كـــل آن وآيــــن مــا حيينــا أعمالــه تــرتيلاً
ولنــزر دائمـــاً مقامـــاً حـــواه ولنقبـــل رفاتـــه تقبـــيلاً
وليضـــع كـــل عـــارف بعـــلاه مـن بـنى مصـر فوقـه إكلـيلاً
ولنعــول علــى الأمــير المفــدى في دم بات مهـــدراً مطلـــولاً
فــإذا اقــتص فالقصــاص حيــاة وهــو نــص لا يقبــل التــأويلا

وختمها بقوله:

ثم أنشد بين القبور وأرخ

مات	ومصر	بطرس	مقتولاً	
٣٤١	٣٣٧	٢٧١	٥٧٧	= ١٦٢٦ قبطية

وفي هذه الأبيات نرى الشاعر يوجه اللوم والسخط الشديد للقاتل الذي وصفه بأنه حليف الشقاء في الدنيا والآخرة. وذلك لأنه قد خسر الدنيا بما سيلقى من الجزاء وهو الإعدام. وخسر الآخرة لأنه ذاهب إلى جهنم. ثم خاطب القاتل فذكر أن بطرس غالي برئ مما أتهم به من الخيانة، وأنه لم يسبب ضرراً لبلاده أو لأمته. ثم أخذ الشاعر يرتفع بشخص الفقد إلى مراتب القديسين. فدعا الأقباط إلى أن يحجوا إلى قبره، ويقبلوا ضريحه، ويحملوا إليه الأزهار والورود تكريماً للفقيد وتحية له. ثم دعاهم إلى التغني بمآثر بطرس، وترديد مناقبه وفضائله، كما يرددون التوراة والإنجيل، أي أنه طلب منهم أن يتعبدوا بسيرته، وهذا تقديس ليس بعده تقديس.

وقد اتجه إلى الخديو، وأعرب عن رجاء الطائفة القبطية في أن يوقع القصاص على المجرم، وأن تأخذ العدالة مجراها. وأشار إلى آية (ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب) وقال إن هذا النص واضح المعنى، لا يمكن أن يفسر على غير ظاهره. والذي دفع الشاعر إلى طلب إعدام القاتل، هو الشائعات التي روجها بعض الناس عن محاولات تبذل عند الخديو ليعفو عن القاتل. وربما قام بعض المصريين بكتابة عرائض وإرسالها إلى الخديو، طالبين فيها الصفح عن المجرم. وقد استخدم العام القبطي في تأريخ ذلك الحادث.

وقد أنشا الأمريكان قاعة للوعظ والتبشير بوجه البركة، ما زالت قائمة إلى الآن تلقى فيها العظات، وتقام بها الصلوات. وكانوا في أيام الاحتلال ينشرون كتباً تتضمن مطاعن في الدين الإسلامي. ولكنهم كفواً عن ذلك في هذه الأيام. وحذت حذوهم بعض الإرساليات الأجنبية الأخرى. فكان بوجه البركة عدة قاعات للتبشير بالدين المسيحي وتدريس التوراة والإنجيل. وكان المبشرون يتسللون إلى دور البغايا ويحاولون إقناعهن بترك حياة الفساد، والرجوع إلى الله.

وجه البركة في العصر الحديث

بعد جلاء الحملة الفرنسية ورجوع مصر إلى الحكم العثماني، رأينا الولاة يسكنون في الأزبكية تشبها بنابليون. فقد نزل الوالي مُحَمَّد خسرو باشا في قصر الألفي، وبالقرب من البركة دارت معارك عنيفة بين خسرو، وبين الجنود الأرنؤود الذين كان يتزعمهم طاهر باشا. وقسم خسرو عساكره وجعلهم في هيئة مربعات على طريقة نابليون وحارب بهم أعداءه وانتصر عليهم. إلا أن الأرنؤود توجهوا إلى القلعة واستولوا عليها وكان بها مدافع وذخيرة كثيرة. وجاءوا ليلاً على حين غفلة وحاصروا قصر خسرو، واضطروه إلى مغادرة القاهرة والسير بأهل بيته وأمواله إلى الإسكندرية، ونهب الأرنؤود منازل الموالين لخسرو من سكان الأزبكية مثل بيت جرجس الجوهري، وأحمد المحروقي، وخليل البكري، وغيرهم. وأصبح قصر الألفي خرابة تنعق فوقها الغربان.

***

وأقام مُحَمَّد على أول عهد بالولاية في قصر فخم بالأزبكية، واستولى على بعض القصور المتهدمة في تلك البقعة وأعاد بناءها وسكن فيها أقاربه وأهله وحريمه. كما أنشأ بعض الإدارات والمصالح في تلك الجهة. منها إدارة للنظر في شكاوى الفلاحين، وكانت بالقرب من شارع عبد الحق السنباطي الآن. ومديرها إبراهيم كتخدا الرزاز يساعده عدد من الموظفين المسلمين

ولم يعين بها أحد من الأقباط. وكانت هذه الإدارة تعمل كل يوم ما عدا يوم الجمعة.

وفي سنة ١٨٠٧ عقب انتصار المصريين على الإنجليز في رشيد، حمل المنتصرون عدداً كبيراً من رؤوس أعدائهم، وعلقوها في أعمدة بالقرب من بركة الأزبكية، وظلت أياماً وهي معلقة والناس يقبلون لمشاهدتها.

وفي سنة ١٨١٤ زوج مُحَمَّد علي، ابنه إسماعيل، وكاتبه مُحَمَّد بك الدفتردار. وأقيمت في الأزبكية احتفالات عظيمة، وأعدت فيها مواكب أرباب الحرف والصناعات. وأخذت الطوائف المختلفة تتنافس في الظهور بالمظهر اللائق بها. وتتفنن وتبتدع. قال الجبرتي: (فكان كل من سولت له نفسه، وحدثه شيطانه بإحداث شيء فعله. ويجمع من أهل الحرفة مالاً كثيراً ينفقه على العربة وما يلزمها من أخشاب وحبال، وحمير أو خيل أو رجال يسحبونها، وما يكتريه أو يستعيره لزينتها من المزركشات والمقصبات وأدوات الصنعة التي يتميز بها عن غيرها. فتصير– أي العربة – في الشكل كأنها حانوت، والبائع جالس فيها كالحلواني وأمامه الأواني فيها أنواع الحلوى، والسكري وحوله أواني الملبس. والشربتلي، والعطار، والحزيري، والعقاد البلدي والرومي والزيات، والحداد، والنجار، والخياط والقزاز، والحباك والنشار وهو ينشر الخشب بمنشاره المعلق، والطحان، والفران ومعه الفرن وهو يخبز والفطاطري، والجزار وحوله لحم الغنم. ومثله جزار الجاموس، والكبابجي والنيفاوي، وقلاءة الجبن والسمك وفيهم حتى المراكبي

في سفينة كبيرة كاملة العدة والقلوع تمشي على الأرض على عجل. وحول كل عربة أهل حرفتها بالملابس الجميلة الفاخرة والطبول والزمور).

وكان هذا الموكب مستقراً في وجه البركة، ويطوف كل يوم شوارع القاهرة ثم يعود إلى موضعه. واستمر على ذلك طوال أسبوعين، وأقيمت الزينات ورفعت المصابيح على الأعمدة، وعملوا بواسطة المصابيح عدة مناظر. قال الجبرتي: (فترى من البعد صورة مركب أو سبعين متقابلين أو شجرة أو محمل على جمل أو كتابة مثل ما شاء الله ونحو ذلك).

وازدحم وجه البركة بالناس على اختلاف أجناسهم وطوائفهم ومللهم، نساء ورجالاً، شيباً وشباناً. وأقبل الفلاحون من القرى المجاورة. وتعذرت حركة المرور في شوارع الأزبكية لشدة الازدحام. وورد جميع أصحاب الألعاب المختلفة كالحواة وأصحاب الأراجوز وخيال الظل، وألعاب البخت والحظ والميسر والأراجيح وغير ذلك. وظلت المدافع والصواريخ تطلق لمدة أسبوعين. وكثرت مآدب الطعام التي تحوي ما لذ وطاب.

وانتشرت المغاني وأقبلت الراقصات من كل صوب، وراجت تجارة المخدرات، ونشطت سوق الدعارة، وربح القوادون مبالغ طائلة لأنهم واصلوا أعمالهم ليل نهار بعزيمة لم تعرف الكلل، وهمة لم يتطرق إليها الملل. وكان مُحَّد علي قد بدأ في تكوين جيش ضخم استعداداً لحرب الوهابين، فانطلق الجنود بوجه البركة يلهون ويعربدون.

وفي سنة ١٨٣٥م أمر مُحَمَّد علي بردم البركة، بعد أن أشار عليه الأطباء بذلك ثم غرس مكانها حديقة واسعة، وكان من المعتاد أن يجرى الاحتفال بالمولد النبوي بالقرب من منزل نقيب السادة البكرية بوجه البركة. وقد وصف الرحالة الإنجليزي (إدوارد ويليام لين) ما شاهده في هذا الاحتفال، وذلك سنة ١٨٣٤م، فما قاله:

(وحين يبدأ شهر ربيع الأول، تأخذ البلاد في الاستعداد للاحتفال بمولد النبي، ويقام الاحتفال عادة في الجزء الجنوبي الغربي من الفضاء الواسع المعروف ببركة الأزبكية. وينصب الدراويش صواوينهم التي يقيمون فيها الأذكار كل ليلة).

(في أثناء النهار يتجمع الناس في مكان الاحتفال، يستمتعون بالاستماع للشعراء الذين يروون سيرة أبي زيد الهلالي، ويتفرجون على الحواة والبهلوانات والمهرجين. وتشاهد في الشوارع المجاورة الأراجيح بأنواعها المختلفة، وعدد لا حصر له من الدكك التي تباع عليها الحلوى والأطعمة المتنوعة. وكان الراقصون على الحبال من الغجر يعرضون ألعابهم في المولد. وفي الليل تتلألأ أضواء المصابيح في هذه الشوارع، وتفتح الدكاكين، التي تزخر بالأطعمة والحلوى، أبوابها طوال الليل. وكذلك المقاهي التي يتسلى الناس فيها بالاستماع للشعراء والمحدثين وبعد منتصف الليل تمر مواكب الدراويش).

***

وفي عصر الخديو إسماعيل، حدثت تغييرات مهمة في خريطة وجه البركة فقد أزيلت الحدائق الواسعة وحولت إلى شوارع وميادين. وأقيمت في أمكنة منها المباني الفخمة، وشيدت دار الأوبرا على جزء منها. وظلت الحديقة التي غرست مكان البركة كما هي، حيث اتخذها إسماعيل حديقة خاصة له، يقضى بها بعض الأوقات. وقد أحاطها بسور مرتفع من الحديد، له أربعة أبواب. وأنشأ بها تلا عليه كشك لطيف، تحيط به الجداول والنافورات البديعة، وغرس في الحديقة أشجاراً مختلفة الأنواع.

ومن الميادين التي مهدت في عهده: ميدان الأوبرا، وميدان قنطرة الدكة، وميدان الخازندار. وشق شارعاً طويلاً يمتد من ميدان باب الحديد، وينتهي بميدان الخازندار، هو شارع كلوت بك.

وفي عصر توفيق، أبيح دخولها للجمهور بعد دفع مبلغ معين، وقد ظل هذا النظام قائماً حتى أزيلت أسوار الحديقة سنة **١٩٥٤**، وفتح في وسطها شارع على امتداد شارع ٢٦ يوليو (فؤاد الأول).

***

ومنذ عصر سعيد، والأجانب يتوافدون على مصر لاستيطانها، وقد شجعهم سعيد على ذلك. ووجدوا في الامتيازات الأجنبية ما يحميهم من قوانين البلاد ويمكنهم من انتهاك الحرمات، واستغلال كافة الفرص للإثراء. وانتشر كثير منهم بوجه البركة يفتحون الخمارات والفنادق والمقاهي والمطاعم وأمكنة الميسر وبيوت الدعارة، والمخابز ومحلات البقالة.

واشتغلوا بالسمسرة في سوق الأوراق المالية، وبالمحاماة في المحكمة المختلطة، وكانت في ميدان العتبة في موضع المنتزه القائم اليوم في وسط الميدان، ولم تستطع الحكومة أن تحد من نشاطهم غير المشروع، ولذلك كثرت جرائمهم وبخاصة في عهد الاحتلال، وأصاب المصريين من ذلك ضرر عظيم. وكثرت بيوت الدعارة المصرية والأجنبية وزحفت شمالاً فاحتلت شارع كلوت بك الذي فتح في عصر إسماعيل، ودخلت في كل زقاق من أزقته، وفي كل منعطف من منعطفاته، وامتدت شرقاً إلى شارع الرويعي والشوارع المتفرعة منه حتى شغلت مسافة وصلت إلى باب الشعرية.

***

وكان الأدباء يغشون المقاهي والحانات والمراقص المنتشرة بوجه البركة، وكثيراً ما يجعلون مما يشاهدون من أنواع الفساد موضوعاً لكتاباتهم، وقد أطلق بعضهم على ميدان الأوبرا اسم (جهة الحصان) لأن تمثال إبراهيم باشا يقوم في هذا الميدان ممتطياً جواداً. فهم لكراهيتهم في عائلة مُحَّد علي، لم يطلقوا اسم إبراهيم على الميدان، ولكنهم أطلقوا اسم الحصان. وقد انتقد المويلحي وضع التمثال في هذا المكان. فقال في كتابه (حديث عيسى بن هشام): (وقد تمثل أمامي في هذه البقعة، وهي موسومة بسوء السمعة، بطل مصر. وكيف جاز لهم أن يضعوا عنوان البأس والجد في مواضع الهزل والدد. ويقيموا لإبراهيم صنماً على صورته في وسط سوق الفسوق وسرته، مشيراً بيمناه إلى مواطن اللهو والفجور، وأماكن الفحش والعهور).

(ويا بؤس قوم جعلوا اليد التي كانت تشير للكماة والفرسان، تشير اليوم في وسط هذا الميدان بمغازلة البغايا ومعاقرة الدنان. فسبحان محول الأحوال ومبدل الأزمان).

ويعتبر المويلحي من كتاب وجه البركة المعدودين، فقد سخر قلمه في تصوير ما كان يجرى على بعض العمد وأولاد الأغنياء في تلك الجهة من فقدان الأموال والضياع.

وكان حسن الآلاتي يتجول كثيراً في وجه البركة، وقد حدثنا عن بعض مشاهداته فقال:

(لما رأيت الخلق وخصوصاً في جهة الحصان عاكفين على استعمال الصغار في أدبارهم، وشاع وذاع هذا الفسق، وكثر ذلك في البلد حتى إذا مر الرجل الصالح من جهة الحصان أو نواحيه، يجتمع عليه المخنث والاثنان والعشرة، ويقولون له (ولع سيجارتنا) مثلاً أو (أعطنا كبريتا). فإن أبى ذلك أو أعطاهم ما طلبوه فلا يسلم من أذاهم، بل ربما يدعون عليه أنه فعل ببعضهم وتأتي شهود منهم فيهم ويشهدون على الرجل الصالح التقي الدين أنه فعل بالمخنث كذا وكذا مرة).

ولهم قوادون ينزلون على المارين في طريقهم، أي في الشارع من جهة الحصان، ويتعرضون للمارة، فإن كان الرجل– أعني من المارة– من الذين يستحون ويخافون على أعراضهم، يمد يده في جيبه ويخرج الكيس ليعطي الخبيث منهم قرشاً أو قرشين أو أكثر، يريد أن يدفعهم عن نفسه بذلك

القدر، فيمد الخبيث يده هو الذين معه ويخطف الكيس. وإن مانع الرجل عن نفسه، ضربوه ونهبوه، وربما حصل ضرب ببعض الأسلحة. والعجب أنهم يأخذون الناس من الطريق ويدعون عليهم عند الحكام أنهم فعلوا بهم ولم يعطوهم الأجرة. وتسمع الخائن منهم يقول: أعطني طرقتي لأنك أفسدت علي سفرتي. إلى غير ذلك مما يطول شرحه.

ثم نظم حسن الآلاتي زجلاً ضمنه معنى ما تقدم. فقال.

جددوا عند الحصان جملة فهاوي ... تجتمع فيها الدواهي والمساوي

لو تروح للقهوجي تعطيه رشاوي ... تلتقيه قواد كبير ما لو مداني

وأن دخل قولي المفيد عقلك وأثمر ... دخل الشارع تجد الأسود ولسمر

والولد عامل خطوط وأبيض وأحمر ... والأصول فحمي غطيس أو برتقالي

ومنها:

جاعلين الفسق والسرقة تجارة ... أول الأشكال يقولوا: هات سجارة

لو رضيت أخذوك لقهوة أو لحارة ... وان أبيت عروك ولو كنت العناني

بطلوا الناس العذارى والغواني ... بالدكور المرد أولاد الزواني

وقد كثر هذا النوع من الدعارة كثرة فاحشة، وكان من هؤلاء المخنثين من يلبس ملابس النساء ويستأجر مسكناً خاصاً بين المومسات، ويعيش كواحدة منهن حتى يكبر وينقطع عنه الناس.

***

وأقبل أولاد الأغنياء ومتوسطو الحال على مراقص وجه البركة وحاناتها. وأنفقوا ثرواتهم وصحتهم ومستقبلهم، وأضحوا فقراء مرضى. لقد خربت بيوت، وبيعت ضياع وقصور، وبددت أثمانها على المومسات وموائد الخمر والميسر. وقد هالت هذه الحالة بعض المفكرين والمصلحين، فرفعوا صوتهم بالشكوى وطالبوا الحكومة بالعلاج. ولكن الامتيازات الأجنبية كانت تقيد الحكومات، وتمنعها من الإقدام على أي إصلاح.

ومن الأدباء الذين عرضوا بوجه البركة، حافظ إبراهيم في قوله مخاطباً الأزبكية:

كـم وارث غـض الشـباب رميتـه   بغـرام راقصـة وحـب هلـوك

ألبســته الثــوبين في حاليهمــا   تيــه الغــنى وذلــة المفلــوك

وقال:

يقولــون في الــنشء خــير لنــا   وللــنشء شــر مــن الأجنــبي

أفي الأزبكيـــة مثـــوى البنـــين وبـين المسـاجد مثـوى الأب؟

وكانت مقاهي وجه البركة مجمعاً للنصابين والمحتالين الذين يتصيدون أهل الريف القادمين إلى القاهرة ويبتزون أموالهم في غير شفقة ولا رحمة. كما كان سماسرة البورصة يتخذون في هذه المقاهي أماكنهم وينصبون شباكهم، فيقع فيها المغفلون، وسرعان ما تتبدد ثرواتهم ويصبحون فقراء معدمين.

يجلس السمسار إلى من يتوسم فيه الغنى وما يزال يزين له المغامرات في البورصة، ويمنيه بالأرباح الوفيرة، ويذكر له أن المغامرات خلقت أبطال السياسة والحرب والمال، ويضرب له بعض الشواهد والأمثال. يقول السمسار: أما المخاطرة فهي لاصقة بالإنسان في كل حركة وسكون، وملازمة لعمله في كل زمان ومكان. ومن أراد أن يتوقى الأخطار ويسلم من المخاوف فلا يباشر عملاً من الأعمال. والأولى له أن يترك هذا العالم إلى سواه.

ويقول لضحيته: وأنا أضمن لك الربح ما دمت آخذاً برأيي، ولا تستمر في هذا الانكماش والحذر اللذين هما علة تأخر المصريين، واجعل دأبك النشاط والإقدام اللذين هما سبب تقدم الغربيين.

وهكذا حتى يلين الضحية ويقع في الفخ.

***

ولما كانت المحكمة المختلطة تقع في ميدان العتبة، فقد انتشر وكلاء المحامين الأجانب في المقاهي الواقعة بتلك الناحية، يصطادون أرباب القضايا من المصريين.

يقول صاحب القضية: من لي بدخول القضية في المحاكم المختلطة وأنا رجل من رعايا الحكومة. ومن لي بمحام أجنبي وأنت تعلم ما يلزم لمثله من المبلغ الجسيم في (مقدم الأتعاب).

فيرد الوكيل قائلاً: رفع القضية إلى المحاكم المختلطة سهل هين، ويكون بالتنازل عنها لأحد الأجانب. وأما المحامى الأجنبي فالوكيل يتعهد بإقناع المحامى الذي يشتغل معه ليقبل القضية من غير أن يلتفت إلى مقدم الأتعاب. وإنما يتفق مع صاحب القضية على مناصفته فيما تحكم به المحكمة من الأموال.

ويقول الوكيل: إن الأجنبي الذي تتنازل له عن القضية حاضر في مكتب المحامى، تحت يده لتسخيره في مثل هذه القضايا، وما على المصري سوى دفع النفقات والرسوم. فإذا أبدى المصري ارتيابه في نجاح قضيته، قال له الوكيل (لو كنت تعلم مهارة المحامى الذي أعمل معه، وما له من علو الشأن في المحاكم المختلطة، ومن الاتصال بقناصل الدول، لما ترددت في أن تعهد إليه بقضيتك).

وهكذا ينمق الوكيل الكلام، وينصب الشراك ليظفر بهذا الصيد الثمين. ومن أين يضمن المصري أن يحصل على حقه وقد تنازل عن دعواه

لشخص أجنبي لا تربطه به صلة قريبة أو بعيدة؟ وبمثل هذه الطرق من النصب والاحتيال، استطاع بعض الأجانب أن يجمعوا ثروات طائلة.

***

وكان الناس يتندرون بما يقع من أعيان الأرياف في وجه البركة، وربما اخترعوا نوادر وفكاهات وألصقوها بهم. روي عن أحد العمد أنه دخل مطعماً يملكه أجنبي ليتناول طعام العشاء، وكان معه بعض أصدقائه، فلما جلس إلى المائدة، وأحضر الطعام، أخذ يمد يده إلى صحن غيره ويعيد إليه فضلة ما يأكله. وقد سقطت منه قطعة لحم على الأرض، فقام وتناولها بيده ووضعها في الشوكة وأكلها دون أن ينظفها مما علق بها من تراب. ولوث المائدة بالمرق والطبيخ. وكان يمسح يده في غطاء المائدة. وكسر بعض الأكواب والأطباق. ووضع بعض الفاكهة في جيبه، وشرب ماء الغسيل. ولم يكتف بهذا بل أخذ يغازل السيدات الحاضرات ويغامزهن، فقمن مستقبحات مستنكرات. ونهض كثير من المترددين على المحل اشمئزازاً من هذه الأفاعيل. وبعد تناول العشاء شرع العمدة يشرب ثم يشرب، وقام يتمايل وينثني ويتثاءب ويتمطى، ولعل في هذه الصورة مبالغات، ولكنها لا تخلو من حقائق.

***

وفي كل حانة من حانات وجه البركة مغنية وراقصة؛ فإذا غنت المغنية سكتت الراقصة، ويحدث العكس، وكثيراً ما كان الشجار يقوم بين جمهور

الحاضرين، بسبب اختلاف أمزجتهم. فمنهم من يفضل الرقص، ومنهم من يحب الغناء. وسرعان ما يشتبك الفريقان في معركة حامية تستخدم فيها المقاعد والعصي. ولذلك وضع أصحاب الحانات نظاماً يكفل إرضاء الحاضرين على اختلاف نزعاتهم، فوقت للغناء، يعقبه وقت للرقص، وبعده غناء وهكذا. فإذا جاء دور الرقص ضجت الغوغاء، واشتدت الضوضاء، وامتدت الأعناق بالصفير والنعيق، واشتغلت الأكف بالتصفيق، ترحيباً وتأهيلاً، وتكبيراً وتهليلاً.

تقوم الراقصة على المنصة، ولا تلبث أن تشير إلى بعض الجلوس، فيصيح هذا طالباً من الساقي أن يحضر زجاجات الخمر ويفتحها ويقدمها للراقصة، فإذا شربت ودبت الخمر في أوصالها، جدت في لعبها ودورانها. واشتدت في قفزها وجولاتها، وهزت بطنها وصدرها، ولعبت عيونها، ووقف الساقي أمامها ينازلها وتنازله، ويغازلها وتغازله، وبراقصها وتراقصه، ويقارصها وتقارصه. وهي ترسل على الحاضرين أقوالاً مثيرة، وتخاطبهم بعبارات مكشوفة. فتفتر لها الثغور، وتنشرح الصدور، وليس في الناس إلا كل مستحسن مستزيد، ومستملح مستعيد.

كم ذهبت بأموال، وقتلت من أرواح، وكم أضاعت شرفاً، وأزالت مجداً، وأذلت رقاباً، وأفسدت حكاماً. وكم فرقت بين المرء وزوجته، وولدت العقوق بين الوالد وولده، وألهبت العداوة بين الأخ وأخيه، وكم خربت بيوتاً عامرة، ودنست أنساباً طاهرة.

وكان جل الذين يحضرون في هذه المراقص من الأعيان والكبراء والأمراء واشتهرت راقصة اسمها (سميرة) ولم تكن على درجة كبيرة من الجمال، ولكنها كانت تجيد الرقص إجادة تامة وتهز أردافها ونهودها، وتمايل بشكل مهيج للأعصاب، فأقبل على مرقصها أبناء الأغنياء وأهل الوجاهة والثراء.

فهذا أحد أبناء الأمراء، مات أبوه وترك له أموالاً جمة، فالتف حوله قرناء السوء من أهل البطالة والفراغ، فأنفق ثروته في أمكنة الدعارة وبخاصة على سميرة، حتى إذا نضب معين أمواله هجرته إلى غيره، وهذا الجالس الذي يفتل شاربيه ويحملق بعينيه، ويغمز بحاجبيه، من أبناء الكبراء. ماتت أمه فورث عنها أموالاً طائلة، ولم يمض على موتها أيام حتى أوقعه سوء طالعه في مخالب سميرة فهو لا يصبر عنها، ولا ينقطع عن المجئ إليها في كل ليلة. وهي تسلبه كل ما تصل إليه يده من خفيف وثقيل. وما كان لأمه من حلي وجواهر.

وهذا حاكم من كبار الحكام في الأرياف، وقع في شراك هذه الراقصة، فكادت لفظاعة أعمالها معه أن تسلخه من شرفه، وتسقطه عن منصبه، وهو مع ذلك لا يسلوها ولا يزهد فيها. وليس له في مدة إقامته بالقاهرة غير بيتها مأوى، ومرقصها ملهي. فإذا عاد إلى مقر وظيفته، عاد بغير عقله. فيسعى في استغواء العمد والأعيان لإقامة الولائم والحفلات، واستئجار هذه الراقصة لإحياء لياليها.

وكانت سميرة بعد أن تفرغ من رقصها، تنزل لإصلاح ما فسد من حالها. ثم تسير متكسرة بين الجموع وهم يرمقونها رمق الشهوة. ويتطلعون إليها تطلع الحيوانات البهيمية. فيعد لها كل فريق كرسياً بجانبه، ويتسابقون إلى دعوتها. وهي لا تعبأ ولا تلتفت، وتستمر في تكسرها وتثنيها، حتى تصل إلى صاحب المرقص فتقف معه ملاعبة مداعبة، ممازحة مضاحكة.

كانت سميرة تعيش في كنف أجنبي متمتع بحماية بلاده، وبذلك ظلت في مأمن من المحاكمة والعقاب، بالرغم من ارتكابها ما يخالف قوانين البلاد، في فسقها وفجورها ورقصها عارية. وهذا الأجنبي له أجر على ذلك يتناوله منها كل ليلة.

وتظل سميرة تتقلب بين الجالسين وتتنقل، وتتجول بين الصفوف وتتحول. وتروح إلى صاحب الحان وتغدو، وتختفي آونة ثم تبدو. منطلقة اللسان بالشتم والسب، منبسطة اليد بالنهب والسلب، ممتدة الكف باللطم والضرب، دائبة في السكب والشرب. وهي في تنقلها تتجهم، وأخرى تتبسم. وتنبسط حيناً وتنقبض، وترضى ساعة ثم تمتعض. وتعامل كل إنسان بما يلائمه، وتجرى معه على ما يوائمه. فتضل الألباب والنهى، ويقع الجميع في أسر الهوى. وآية حبها وميلها أن تصفع الصب بنعلها. فإذا أفرطت في ضرب شخص بالنعال، كان ذلك علامة الرضى وبلوغ الآمال بدنو ساعة الوصال. وطفق المضروب يفاخر أصحابه وخلانه، ويباهي أنداده وأقرانه، كالظافر في ساحة الطعان والضراب، والفائز بالغنائم والأسلاب. فيغالى في إظهار الابتهاج والائتناس، وتنبسط يده في الكيس،

ويدها في الكاس. والغلام على رأسه بالآنية، يصب لها زجاجة كل ثانية. وهي تصب الكؤوس في الهاوية، كأن حلقها قناة، وكأن الساقي سانية.

جلس إليها أحد العمد ذات ليلة، وأنفق عليها مبلغاً طائلاً، ثم أخرج ساعته من جيبه ليرى الوقت، فخطفتها منه ونظرت فيها، ثم قالت إن موعد الانصراف قد حان. وأخذت الساعة وانطلقت مسرعة، ونهض العمدة المسكين يجري وراءها وهو يتعثر في مشيته، حتى أدركها واقفة عند صاحب الحان، فوقف بين يديها يسألها أن تبر بوعدها وتذهب معه في تلك الليلة. فأعرضت عنه وأمعنت في الإعراض، فأخرج حافظة نقوده ليغريها، فدفعته على الأرض برجلها، فسقطت منه الحافظة وتناثر ما فيها من نقود. وهنا دخل الأجنبي الذي يحمي هذه الراقصة، وانهال على العمدة لطماً وركلاً، وتناول النقود المبعثرة، وأخذها وانصرف تتبعه سميرة، وخرج العمدة وقد خسر ساعته وماله طالباً النجاة لنفسه.

***

ويعتبر حي وجه البركة من أكثر أحياء القاهرة ازدحاماً بالسكان، وقد أورد على مبارك في خططه إحصائية عن عدد المقاهي والخمارات ومحلات بيع البوظة. فكان في وجه البركة ٢٥٢ مقهى، ٢٢٨ خمارة، ١٥ محلاً لبيع البوظة. وهذا يعادل ما كان في أحياء القاهرة جميعها في ذلك الوقت (سنة ١٨٨٠) وكان بهذا الحي ٨٣٧٨ مسكناً، وبلغ ما حصل منه

من ضرائب سنة ١٨٧٢ مبلغ ٦٧٢٩٢٧ وهي ضعف المبالغ المتحصلة من بعض الأقسام.

***

وفي سنة ١٩٤٩ صد أمر بإلغاء البغاء، فأغلقت أمكنة الدعارة، وجدت الحكومة في مطاردة القوادين والبلطجية الذين يسكنون في أزقة شارع كلوت بك. وخلت المساكن والدكاكين التي شغلتها النساء الساقطات من قديم الزمن. وحل فيها بعض أصحاب الصناعات كالنجارين والحدادين، وصانعي الحقائب والأحذية، وباعة القوارير الفارغة وغيرهم. أما الحانات فما زالت موجودة كما كانت من قبل، وكذلك المطاعم. ونظراً لقرب حي وجه البركة من محطة السكك الحديدية، ومحطات السيارات العامة التي تسافر إلى الأقاليم، نظراً لذلك فقد ازدحم بالفنادق حتى لا يضارعه حي آخر في العاصمة.

وحي وجه البركة هو قلب مدينة القاهرة، وتخرج منه السيارات العامة حاملة الركاب إلى جميع أنحاء المدينة، وبه مكتب النقل البري العام وإدارة مصلحة البريد، والمركز العام للمطافي، وبه أكبر المحلات لتجارة القطاعي.

***

والحق يقال إن حديقة الأزبكية قبل أن يهدم سورها، لم يكن يشعر بوجودها أحد، فكانت تدخلها قلة من الناس. فإذا جاءت الساعة

السادسة أخليت وأغلقت أبوابها. أما بعد هدم أسوارها فإنها أضحت ملجأ للناس في وقت الصيف، وقامت بها مراقص ومقاه فخمة، وفي الأعياد يجتمع فيها أصحاب الألعاب وأرباب الملاهي ويعرضون ألعابهم المختلفة ويظل السهر فيها طوال الليل.

***

أما المعاهد العلمية بوجه البركة فهي:

١- مدرستان أنشأتهما الحملة الفرنسية لتعليم أبناء الفرنسيين.

٢- مدرسة للطب كانت في أبي زعبل في عهد مُحَمَّد علي، ثم نقلها إلى الأزبكية.

٣- مدرسة تجهيزية كانت في عهد عباس الأول في محل فندق شبرد الذي احترق وهدم سنة ١٩٥٢.

٤- مدرسة الألسن في عهد إسماعيل باشا.

٥- مدرسة الأقباط الابتدائية وقد سبق الكلام عليها.

٦- مدرسة الأقباط الثانوية، وقد سبق الكلام عليها أيضاً.

٧- مدرسة الراهبات الفرنسيسكان بشارع الجامع الأحمر.

٨- مدرسة الأمريكان للبنين (ابتدائي- ثانوي).

٩- مدرسة ليلية بشارع الجامع الأحمر.

الفنون الجميلة في وجه البركة

(١)

التمثيل

من أنواع المدنية الحديثة التي جاءت بها الحملة الفرنسية، التمثيل فكان بين جنود الحملة، بعض رجال من الممثلين والموسيقيين، وقد أنشأ نابليون مسرحاً ضخماً بوجه البركة مثلت فيه الروايات باللغة الفرنسية ترفيهاً عن الجنود وتسلية لهم. ولكن هذا المسرح دمر في خلال وثورة سنة ١٧٩٩، فأعاد الجنرال مينو بناءه من جديد، وأطلق عليه (مسرح الجمهورية) وكان موقعه بالقرب من شارع غيط النوبي الآن، وقد زال عقب جلاء الفرنسيين، ولم يعرف المصريون شيئاً عن التمثيل الحديث.

وبقي الأمر على ذلك حتى أنشأ الخديو إسماعيل دار الأوبرا سنة ١٨٦٩ واستقدم لها الممثلين من أوروبا، ومثلت فيها رواية عايدة باللغة الفرنسية، ثم جاء إلى مصر بعض السوريين نذكر منهم عبد الله الخياط، واشتغلوا بالتمثيل في دار الأوبرا. ولكنهم توقفوا عن العمل، وذلك لأن دار الأوبرا أغلقت أبوابها منذ أن عزل إسماعيل، وبقيت مغلقة إلى سنة ١٨٨٢.

ففي سنة ١٨٨٢ جاء إلى القاهرة سوري اسمه (سليمان القرداحي) مع فرقة تمثيلية. وضم إليه الشيخ سلامه حجازي، فسمحت له الحكومة بالتمثيل في دار الأوبرا. إلا أن القرداحي ما كاد يبدأ العمل حتى قامت الحركة العرابية واضطربت الأحوال في العاصمة، فاضطر إلى الرجوع إلى سوريا. وفي سنة ١٨٨٤ فكر القرداحي في العودة إلى مصر. وجاء فعلاً واستأنف نشاطه الفني من جديد. وضم إليه سلامة حجازي مرة أخرى، وممثلة سورية اسمها (ليلى) فكانت الأوبرا تغص بالمتفرجين لكثرة الزحام رغبة في سماع الغناء.

وقد أعجب المصريون بالتمثيل، وأقبلوا على الاشتغال به، ولكنهم لم يفكروا في اتخاذه وسيلة للكسب، ولا مصدراً للعيش، فكانت في كثير من المدارس فرق تمثيلية مكونة من الطلبة.

وجاء إلى القاهرة حوالي سنة ١٨٩٠ ممثل سوري هو أبو خليل القباني ومعه إسكندر فرح. فاشتغلت فرقة القباني بضع سنوات وكان يمثل في مسرح إفرنجي اسمه (بوليتياما) ثم انفصل فرح عن القباني وألف فرقة جديدة، وأنشأ مسرحاً. خاصاً به في شارع عبد العزيز في موضع سينما أوليمبيا الآن، وأطلق عليه اسم (دار التشخيص العربي).

ولما كان فرح فقيراً، فقد راعى البساطة المتناهية في بناء مسرحه وتأثيثه، ولا يخفى أن الاشتغال بالتمثيل في سنة ١٨٩٠ كان يختلف عن الاشتغال به في أيام الخياط والقرداحي. وذلك لأن هذين الرجلين اعتمدا

إلى حد كبير على إعانات سخية من الخديو وبعض الأمراء والوجهاء. وكان يهمهما إرضاء هذه الطبقة الارستقراطية، وإدخال السرور عليها وتمثيل ما يعجبها وينال رضاها. أما عامة الشعب فلم يعمل لها حساب، وقليل جداً من كان يذهب من العامة إلى دار الأوبرا لمشاهدة التمثيل.

أما فرقة القباني وفرح وغيرهما، فقد اتجهت اتجاهاً شعبياً، واعتمدت في تدعيم حياتها، والحصول على موارد رزقها على الجمهور، ولذلك اجتهدت في إرضائه، وإغرائه بالحضور. وكان لا بد لها في هذه الحالة من أن تلفت نظر العامة، وتسترعي انتباههم، وذلك بتمثيل الروايات المضحكة، أو إنهاء الرواية بفصل مضحك. ووجدوا أن المصريين يعشقون الصوت المطرب، فأدخلوا الغناء في التمثيل، وبهذا انفتح أمام المغنين باب جديد، وهو العمل في المسارح ومزاولة التمثيل الغنائي، وكانوا قبل ذلك مقتصرين على الغناء في المقاهي والحانات.

ثم أخذت الفرق ترتقي يوماً بعد يوم نتيجة لارتقاء أذواق الجمهور واشتهرت فرقة إسكندر فرح لوجود المطرب المشهور الشيخ سلامة حجازي ضمن أعضائها، وارتفع مستوى الفرقة والمسرح والمشاهدين، فكان التقدم عاماً.

وما زال سلامة حجازي عاملاً في فرقة إسكندر فرح إلى سنة ١٩٠٤ فحينئذ فكر سلامة في أن ينفصل وينشئ مسرحاً خاصاً به. فاشترى في سنة ١٩٠٥ دار تياترو (فردي) وكان بوجه البركة، بشارع

المهدي، وسماه (دار التشخيص العربي)، فلقي من الأمة إقبالاً شجعه على السير في سبيل التحسن والإتقان حتى بلغ شأوا عظيماً. أما فرح فإنه كون فرقة جديدة، لأن فرقته القديمة فضلت أن تعمل مع الشيخ سلامة، وقرر أن يكون تمثيله خالياً من الغناء.

وكان الاعتقاد السائد في الأذهان في ذلك الوقت، أن التمثيل لا يعد تمثيلاً إلا إذا تخللته أدوار غنائية. ومنشأ هذه العقيدة أن النقاش مؤسس التمثيل العربي، رأى أن يضمن حضور أكبر عدد ممكن من الجمهور إلى مسرحه ليزداد كسبه. فمزج التمثيل بالغناء ليضرب عصفورين بحجر. فمن الناس من يحضر لسماع الغناء، ومنهم من يحضر لمشاهدة التمثيل. فنشأ الجمهور على هذه العادة. فلما عدل فرح عن هذه الطريقة لم يقبل عليه أحد، وتحول الناس إلى مسرح سلامه حجازي. فاضطر فرح إلى حل فرقته وإغلاق مسرحه.

وما زالت المسارح تكثر، والتمثيل يرقى، حتى ظهرت السينما فتحولت إليها الجماهير. أما دار الأوبرا فقد قل نشاطها، وارتفعت أسعار الدخول فيها حتى اقتصر الحضور فيها على الطبقات الغنية. وكانت تستقدم بعض الفرق الأجنبية لتمثيل بعض الروايات.

وبعد قيام ثورة الجيش سنة **١٩٥٢** خفضت أسعار الدخول حتى أصبحت في متناول العامة وسواد الشعب، وعني أولو الأمر بتأليف

تمثيليات شعبية، وكثر عدد الروايات التي تمثل فيها. وبهذه الطريقة تساهم دار الأوبرا في نشر الوعي الوطني والفني والنهوض بفن التمثيل.

وما زال في حديقة الأزبكية مسرح للتمثيل، يصادف رواجاً عظيماً.

ومنذ سنة **١٩١٤** بعد قيام الحرب العالمية الأولى، أخذ أصحاب المسارح من أمثال عزيز عيد، وجورج أبيض، والكسار، والريحاني ينتقلون من وجه البركة إلى شارع قريب منها، قدر له أن يكون شارع المسارح ودور السينما في مصر، أعنى به شارع عماد الدين.

وكانت بعض الجمعيات الخيرية تقيم حفلات تمثيلية في حديقة الأزبكية.

(٢)

السينما

شاهد سكان القاهرة السينما لأول مرة سنة ١٩٠٦ في مطعم ومقهى (سانتي) بجانب الباب الشرقي لحديقة الأزبكية. وكان هذا المقهى من أفخم مقاهي العاصمة في ذلك الوقت. وقد أحدثت أول أشرطة عرضت دهشة كبرى، وأخذ الناس يتسابقون إلى محل (سانتي) لمشاهدة هذه العجيبة الجديدة. وكانوا في أول الأمر يظنون أنها كالسفيرة العزيزة، التي يطوف بها بعض الناس في الشوارع. ثم أخذوا يفهمون رويداً رويداً حقيقة أمرها. وكانت الأشرطة التي تعرض قصيرة، وتمثل مناظر مختلفة لا رابطة بينها ولا صلة. ومن الأشرطة التي عرضت في أول الأمر: منظر ميدان الأوبرا في باريس، ومنظر بستاني في باريس يرش الحديقة بالماء ويسوى الزرع وينظف ممرات الحديقة. ومنظر ملك إيطاليا وملكتها في إحدى رحلاتهما. ومنظر انصراف العمال من أحد المصانع.

ولما رأى أصحاب المقاهي من الأجانب أن (سانتي) ربح من السينما مبالغ طائلة، حذوا حذوه وقلدوه، وأحضروا آلات العرض وما يلزم من الأشرطة. وكان الناس يجلسون على جانبي الشاشة لأن المناظر كانت ترى من الناحيتين. وكان سعر الحضور يتراوح بين ثلاثة قروش وعشرة.

ويحكمون قاعة العرض بالورق الأحمر. وكان المشتغلون بالسينما في ذلك التاريخ من الأجانب، وظلوا محتكرين هذا العمل مدة من الزمن.

وفي نفس الوقت الذي كانت تعرض فيه السينما في قهوة سانتي، نشأت دار أخرى بشارع ٢٦ يوليو (مكان محلات شملاً) حالياً. وكان اسمها (سينما باتي) ونشأت دار أخرى في موضع مستشفى صيدناوي حالياً، وكان اسمها (سينما سبلندد) وفي سنة ١٩١٢ نشأت سينما أوليمبيا بشارع عبد العزيز. وبعد ذلك بأعوام نشأت سينما رمسيس.

ومنذ سنة ١٩٠٩ بدأ شارع عماد الدين يحتل مكانه في عالم السينما، ولما بنى الخديو عباس عماراته الشاهقة، تتابع البناء في ذلك الشارع، وشارع ٢٦ يوليو. وقامت دور السينما الفخمة التي ما نزال نشاهدها حتى الآن.

(٣)

الغناء

كان المغني الذي يريد أن يكسب شهرة واسعة، يتحتم عليه أن يعمل في مقاهي وجه البركة ومراقصها مدة من الزمن. وقد ظل هذا الاعتبار مأخوذاً به حتى ظهر الحاكي، ثم الإذاعة.

وقد بدأت أم كلثوم حياتها الغنائية في مقهى سانتي سنة ١٩٢٢ وظلت تغني دون انقطاع إلى سنة ١٩٢٤. كما أن مُحَمَّد عبد الوهاب غنى في نفس المقهى المتقدم ذكره من سنة ١٩٢٢ إلى سنة ١٩٢٤. ولما كان المغنون الذين ظهروا واشتغلوا بوجه البركة لا يحصيهم العد، ومنهم الشيخ سلامة حجازي المتقدم ذكره والمتوفى سنة ١٩١٧، والشيخ يوسف المنيلاوي المتوفى سنة ١٩١٧، وعبده الحامولي المتوفى سنة ١٩٠١، فقد رأيت أن اكتفي بالكلام على الحامولي نظراً لما أسداه من فضل على الغناء المصري في العصر الحديث.

ولد الحامولي بمدينة طنطا سنة ١٨٤٥، وكان والده يتاجر في البن، وقد حدث نزاع بين الوالد وأولاده، فخرج عبده مع أخيه الأكبر هاربين. وما زالا يجدان في السير حتى أدركهما الجوع والعطش. فرآهما المعلم شعبان وكان يشتغل بالغناء والضرب على القانون بمدينة طنطا. وكان قد سبق له أن سمع صوت الصبي عبده الحامولي وأعجب به كل الإعجاب، وتوقع له

مستقبلاً حسناً. فلما رآه مع أخيه سائرين في الخلاء هرباً من والدهما، نصحهما بالعودة معه إلى المدينة، وفعلا رجعا معه. وفكر المعلم شعبان في أن يستغل عبده في الغناء حتى ينتفع من ذلك. فصحبه وقدم به إلى العاصمة. وفي مقهى معروف بوجه البركة في ذلك العهد، وهو مقهى عثمان أغا وكان يقع بحديقة الأزبكية، استقر المعلم شعبان مع الصبي عبده الحامولي، فأقبل الناس على سماع هذا الصوت الرخيم من كل صوب، وكثرت أرباح المعلم شعبان. فخاف أن يتركه الصبي، وكان بعض الناس قد فكر في استمالته إلى جانبه وإغرائه بترك شعبان. فعرض المعلم على الصبي أن يزوجه بنته، فقبل عبده وتم الزواج. ولكن شعبان اعتقد أنه يستطيع بعد هذا الزواج أن يذل زوج بنته، ويتحكم فيه كيف شاء ويستأثر بدخله كله. فلم تطب نفس الحامولي لذلك، ولكنه انتظر وصبر حتى يحين الوقت المناسب لينفصل عن المعلم شعبان.

وسرعان ما حانت الفرصة. فقد كان في القاهرة رجل ذائع الصيت في فن الغناء، اسمه (المقدم) وتصادف أن مر بمقهى عثمان أغا، وجلس ليستريح قليلاً ويشرب فنجاناً من القهوة. فسمع عبده يغنى فأعجب به، وسعى جهده ليضمه إليه، ويلحقه بتخته. فلم يجد صعوبة في ذلك، بل وجد ترحيباً، ودون تردد انفصل عبده عن المعلم شعبان، وطلق زوجته حتى تنقطع العلاقة بينهما بصفة نهائية. وأخذ منذ ذلك الوقت يعمل مع المقدم. وكان الغناء المصري يجري على طريقة قديمة جداً هي طريقة شاكر الحلبي التي سبق الكلام عليها في حديثاً عن وجه البركة في العصر العثماني.

ولم يرض الحامولي عن هذه الطريقة كل الرضى؛ فأخذ يدخل عليها التحسين تلو التحسين حتى وصل بها إلى درجة محمودة. فاقتبس من الموسيقى التركية نغمات لم يكن للمصريين بها علم من قبل، مثل النهاوند، والعجم، والحجاز كار وغيرها. وخلط ما أخذه من الأتراك بما ورثه عن المصريين. وبذلك ابتكر شيئاً جديداً كان له وقع عظيم في النفوس.

وظهرت في وجه البركة مغنية اسمها (ألمظ) حازت شهرة عظيمة المدى، فتروجها الحامولي ومنعها من الغناء.

وقد أعجب به الخديو إسماعيل وألحقه بحاشيته وجعله مطربه الخاص، وبعد أن خلع إسماعيل، عاد الحامولي إلى مغاني وجه البركة ومراقصها، يطرب الجماهير بصوته الملائكي الحنون:

***

وكثر عدد العوالم في جهات الأزبكية منذ عصر إسماعيل. وزاد عدد المغنين والمغنيات. وتنافس أصحاب المقاهي والحانات في استخدام أشهر المطربين. وكان هذا مما يغري الناس بالسهر والسكر والعربدة، وكثيراً ما كان الغناء محركاً للشهوات، ودافعاً على ارتكاب الموبقات.

وظلت ناحية وجه البركة عامرة بالرقص والغناء إلى أن ظهرت السينما والإذاعة، فكان هذا سبباً في القضاء على سوق الغناء في الأزبكية قضاء تاماً.

مؤلفات الأستاذ محمد سيد كيلاني

١- أثر التشيع في الأدب العربي.

٢- الحروب الصليبية وأثرها في الأدب في مصر والشام.

٣- ديوان البوصيري- شرح وتحقيق ودراسة.

٤- ديوان ابن زيدون- شرح وتحقيق ودراسة.

٥- طيف الخيال للشريف المرتضى.

٦- عين اليقين في سيرة سيد المرسلين.

٧- دروس في تاريخ الإسلام جزآن.

٨- التفصيل في شرح وإعراب شواهد ابن عقيل.

٩- في ربوع الأزبكية.

الفهرس